قاسم أمين (١٨٦٥م ـ ١٩٠٨م)

فتنة الأجيال، وداعية السفور في عهد الاحتلال

(ولد « قاسم أمين » في أول ديسمبر عام ١٨٦٣م بالإسكندرية، والتحق بمدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية، وكانت تقع بحي رأس التين إلى جوار السراي)[٢٤].

وقيل (إن أباه « محمد بك أمين » من أصل كردي[٢٥]، وقيل: (بل أصل الأسرة تركي، وإن بعض أفراد أسرة « محمد بك أمين » قد ولي « السليمانية » من أعمال العراق، وبقيت الأسرة ردحاً من الزمن تقوم بهذه الولاية، حتى ظُنَّ أنها كردية، وممن صحح هذا « أحمد خاكي » في كتابه « قاسم أمين »)[٢٦].

(وكان أبوه قد أخذ رهينة في الأستانة على أثر خلاف وقع بين الدولة العلية والأكراد، ثم جاء إلى مصر في عهد إسماعيل باشا، وانتظم في الجيش المصري، ورقي إلى رتبة أميرالاي، وتزوج بكريمة « أحمد بك خطاب » شقيق « إبراهيم باشا خطاب » فولدت له أولاداً كان أكبرهم « قاسم »)[٢٧].

(وفي سنة ١٨٨١م نال قاسم إجازة الحقوق، ثم عمل بمكتب صديق والده التركي « مصطفى فهمي » المحامي)[٢٨]، (وانضم للكوكبة التي كانت تحيط

---

(٢٤) (قاسم أمين) تأليف د. ماهر حسن فهمي ص(٣٠).

(٢٥) (بناة النهضة العربية) تأليف جرجي زيدان ص(٩٩).

(٢٦) (قاسم أمين) تأليف د. ماهر حسن فهمي ص(٢٨).

(٢٧) (بناة النهضة العربية) ص(٩٩).

(٢٨) (قاسم أمين) للدكتور ماهر حسن فهمي ص(٣٣).

بجمال الدين الأفغاني ، حيث التقى بمحمد عبده وسعد زغلول ومحمد فتحي زغلول وعبد الله النديم وأديب إسحاق وغيرهم)[٢٩] .

رحل « قاسم » إلى فرنسا ليتم تعليمه هناك ، وانبهر بالحياة في أوربا حتى أنه صرح بأن (أكبر الأسباب في « انحطاط » الأمة المصرية ، تأخرها في الفنون الجميلة التمثيل والتصوير والموسيقى)[٣٠] ، (وبعد أن كان يقر العامة حين يقولون : « مصر أم الدنيا » فإنه الآن في باريس يقول إنَّ الأصح أن تُسَمَّى « خادمة الدنيا »)[٣١] .

(ويتعرف قاسم على صديقته الفرنسية « سلافا » التي تصاحبه إلى المجتمعات الفرنسية والحفلات ويتعرف إلى كثير من الأسر ، وتقوى العلاقة بينهما ، فبينما كان يقرأ في مصر مقدمة « ابن خلدون » وإحياء العلوم « للغزالي » والأغاني ، نجده في فرنسا يقرأ مع زميلته حكم « لارشفوكو » ، وشعر « لامارتين » وفلسفة « فنلون » و « رينان » ، وأعمال « فولتير » و « روسو » و « سبنسر » وغيرهم)[٣٢] .

(وكانت في فرنسا في الوقت نفسه حركة نسائية كما كانت في إنكلترا وأمريكا حركة نسائية أخرى ..)[٣٣] .

(كل هذه الأفكار تأثر بها مصري يعيش في قلب باريس، في قلب هذه النظريات)[٣٤] .

---

(٢٩) (قاسم أمين) لأحمد خاكي ص(٤٥) .

(٣٠) (كلمات) تأليف قاسم أمين ص (٢٤) .

(٣١) (قاسم أمين) للدكتور ماهر فهمي ص (٤٤) .

(٣٢) السابق ص (٤٠ ــ ٤١) .

(٣٣) السابق ص (٤٣) .

(٣٤) السابق ص (٤٣) .

(وفي هذا الوسط اضطرب قاسم المسلم الشرقي)[٣٥] .

(والتقى قاسم في فرنسا بالأفغاني ومحمد عبده ، وانضم إلى جمعية « العروة الوثقى » واتخذه محمد عبده مترجما له)[٣٦] .

(وبعد أن أتم قاسم دراسته في فرنسا طلب إليه أستاذه « لرنود » أن يعمل معه بضعة شهور يكتسب فيها خبرات عملية ، ووافق قاسم أمين)[٣٧] .

الخطوة الأولى :

رَدُّه على « داركير »

قرأ « قاسم أمين » كتاب « داركير » عن المصريين ، فتألم أشد الألم حتى قيل : إنه مرض عشرة أيام بعد قراءته لشدة تأثره ، فحاول أن يدافع عن المصريين والإسلام ، وألف ردًّا بالفرنسية ، حاول فيه تفنيد اتهاماته لمصر والمصريين ، وبين فيه فضائل الإسلام على المرأة المصرية ، ورفع من شأن الحجاب ، وعده دليلاً على كمال المرأة ، وحاول شرح الحكمة الإيجابية في قوانين الشرع الإسلامي ، إلا أن دفاعه قد بدا تبريرياً ، وشرحه قد اتسم بالخنوع والذلة فيقول ، وكأنه يناشد داركير أن يعتبر « الإسلام » في مرتبة « النصرانية » و « المجوسية » : (إن الإسلام دين خلقي ، لايقل عن المجوسية ولا عن المسيحية ، وإن روح القرآن لاتختلف عن الروح الإنجيلية)[٣٨] اهـ . ويقول أيضاً : (... ولهذا كان أمامها ــ أي مصر ــ طريقان : العودة إلى تقاليد الإسلام ، أو محاكاة أوربا ، وقد اختارت الطريق

---

(٣٥) السابق ص (٤٥) .

(٣٦) السابق ص (٤٧) .

(٣٧) السابق ص (٥١) .

(٣٨) (قاسم أمين ــ الأعمال الكاملة) تحقيق د. محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦ ــ (ج١/ص٢١٧) .

الثاني ... إنها قد خطت اليوم بعيداً في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه ، إن مصر تتحول إلى بلدٍ أوربي بطريقة تثير الدهشة وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوربي ... لقد اعتاد المصريون قضاء الصيف في أوربا (؟!) كما اعتاد الأوربيون قضاء الشتاء في مصر ، فلعل أوربا تقدر لمصر مسيرتها ، ولعلها ترد لها يوماً بعض هذا الود الكبير الذي تكنه لها مصر)[٣٩] اهـ ، ومما يجدر الإشارة إليه أن قاسماً استنكر في كتابه ــ المصريون ــ خطة بعض السيدات المصريات اللائي يتشبهن بالأوربيات ، فاقتنص بعض خصومه الفرصة ، ووشوا به إلى الأميرة نازلي بأن قاسماً إنما يعنيها هي بهذا التعريض بذم المصريات اللائي يقلدن الإفرنجيات ، ويسرن سيرتهن ، لأنه لم يكن في نساء مصر آنذاك من يتشبه بالنساء الأوربيات غيرها[٤٠]، فقد كانت الوحيدة التي تختلط بالرجال ، وتجالسهم في صالونها الذي افتتحته آنذاك ليكون مركزاً تبث منه الدعوة إلى التغريب عامة ، وإلى « تحرير المرأة » خاصة[٤١] .

---

(٣٩) المصدر السابق (١/٢٦٣) .

(٤٠) من مقال لداود بركات رئيس تحرير الأهرام (جريدة الأهرام مايو ١٩٢٨) .

(٤١) [وكان من رواد « صالون الضرار » هذا سعد زغلول والشيخ محمد عبده ، واللقاني ، ومحمد بيرم وغيرهم ، وكانت نازلي تؤيد هؤلاء في قصر الدوبارة وهو مقر المندوب السامي الإنكليزي ضد قصر عابدين ، وتسعى لترقيتهم ، وهم يعتمدون عليها في كل أمر ، وكانت الأميرة نازلي قد افتتحت هذا المنتدى إثر عودتها إلى مصر بعد الاحتلال ، وبعد أن قويت روابطها مع اللورد كرومر ، واتخذت من المعتمد البريطاني أداة لحماية رواد هذه الدعوة وتعبئتهم لتوجيه هذه الحركة متى أمكن ذلك] اهـ من (الأخوات المسلمات) ص٢٤٠ وما بعدها ، (الحركات النسائية في الشرق) ص١٥ ، مقالة « داود بركات » في عدد الأهرام الخاص بمرور ٧٥ عاماً على تأسيسه .

رد فعل الأميرة « نازلي » :

غضبت الأميرة مما فعله « قاسم أمين » وقالت للشيخ « محمد عبده » قولاً شديداً بعد أن هددت ، وتوعدت ، وقد أشير إلى جريدة (المقطم) لسان حال الإنكليز في مصر في ذلك الوقت ــ أن تكتب ست مقالات تتعقب آراء « قاسم أمين » في كتابه « المصريون » ، وتفند أخطاءه في دفاعه عن الحجاب ، واستنكاره الاختلاط بين الجنسين ، ولكن لم تلبث هذه الحملة أن ألغيت بعد أن اقتنع « قاسم أمين » بضرورة تصحيح خطئه[٤٢] ، واتفق معه « سعد زغلول » و « محمد عبده » على أن ينشر كتاباً يصحح فيه خطأه ، ويؤيد فيه الدوق « داركير » ، ويواصل مناصرته لكتاب (المرأة في الشرق) للقبطي « مرقص فهمي » ، وهكذا ! خرج « قاسم أمين » على البلاد بكتابه « تحرير المرأة » سنة (١٨٩٩م) ، ودعا فيه إلى نفس ماسبق أن دعا إليه ذلك الصليبي بحذافيره ، اللهم إلا أنه لم يتعرض لمسألة زواج المسلمات من الأقباط .

---

(٤٢) وقد حكت « هدى شعراوي » في مذكراتها المنشورة بمجلة (حواء) العدد رقم (١٢٢١) بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٨٠م عن الشيخ عبد العزيز البشري أنه قال في احتفالٍ بذكرى قاسم أمين : (إن كثيرين من الحاضرين كانوا أشد من وجع الضرس وضرباته على دعوة قاسم أمين وعلى شخص قاسم أمين ، وقال : إن قاسماً كان في مبدأ حياته من الرجعيين ، حتى إنه لما رد على الدوق « داركير » دافع عن الحجاب واستنكر السفور ، فظنت الأميرة « نازلي فاضل » ــ وكان مجلسها يجمع العلماء والفضلاء أمثال محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان وفارس نمر ويعقوب صروف والمويلحي وابنه ــ أنه يقصدها ، فغضبت لذلك ، ولكن سعداً قدم صديقه إليها ، ولما رأى شدة عقلها ورجاحة حلمها ووثاقة فضلها ، انقلب عن رأيه ، وأخذ يطالب بتحرير المرأة)اهـ .

أثر الأميرة «نازلي» في فكر الشيخ «محمد عبده»:

كان الشيخ «محمد عبده» مقرباً لدى الأميرة «نازلي فاضل»، وقد سعى لأستاذه «الأفغاني» كي يتوسط لها لدى السلطان في الآستانة، ليمنحها وساماً سلطانياً[٤٣].

وكانت هي قد سعت لدى الخديوي «توفيق» ليعفو عن الشيخ «محمد عبده» عقب عودته من منفاه، كما التمست وساطة «كرومر» للأمر نفسه[٤٤]، وتم المراد، وعفا عنه الخديوي.

وقد أدركت تلك الأميرة ما للشيخ من تفوق عقلي وخلقي فَخَصَّته بمكانة متميزة[٤٥].

وقد ظهر تأثيرها على موقف الشيخ «محمد عبده» من الإنكليز الذين كان يشتد عليهم قبل التعرف على الأميرة، أثناء صحبة الأفغاني وعقب الثورة العرابية، أما بعد اتصال الشيخ بالأميرة، التي كانت صديقة لبعض الإنكليز، فقد خفت حملته ضد إنكلترا، وسمح بصداقته الشخصية للورد «كرومر» صديق الأميرة[٤٦]، وهذا ما أحنق صدور بعض الوطنيين عليه، وإن دافع عنه تلاميذه بقولهم: «إنه سمح بصداقته للورد «كرومر» دون تفريط في حق بلاده، أو عدول عن رأيه السياسي» اهـ.

(٤٣) (تاريخ الإمام محمد عبده) (٨٩٧/١).

(٤٤) السابق (٨٩٥/١).

(٤٥) مجلة الهلال ــ العدد الماسي ص(٢٢٥) من (الهلال) ج٧ م٦٦.

(٤٦) السابق.

الخطوة الثانية :

كتاب « تحرير المرأة »[48]

ظروف تأليف الكتاب :

كتب (فارس نمر) صاحب (المقطم) في مقال له في مجلة (الحديث) الحلبية عام ١٩٢٩ م يقول : (إن الشيخ « محمد عبده » تطوع للقيام بهذه المهمة[49] ، وتحدث الشيخ « محمد عبده » مع الأميرة « نازلي » في هذا الشأن ، واتفق « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « محمد المويلحي » وغيرهم على أن يتقدم « قاسم أمين » بالاعتذار إلى سمو الأميرة ، فقبلت اعتذاره ، ثم أخذ يتردد على صالونها ، وارتفع مقامها لديه ، وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة ، الذي كان الفضل فيه للأميرة نازلي ، والذي أقام الدنيا وأقعدها ، بعد أن كان « قاسم أمين » أكثر الناس دعوة إلى الحجاب) اهـ .

نظرة في الكتاب :

طبع الكتاب في سنة ١٨٩٩م ، وقد ألغى فيه أفكاره الدفاعية التي أوردها في

---

(٤٨) بتأمل عنوان الكتاب يتبين لنا أنه كان يعتبر المرأة مستعبدة ، وقد أخذ على نفسه أن يحررها ، وقد جاء في مجلة الهلال أنه كان (يعلم مايعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام لأن إصلاح المرأة يقتضي منحها الحرية ، ويتناول تقبيح الحجاب ، والنهي عن الطلاق وتعدد الزوجات ، مما يعده العامة من قبيل العقائد الدينية ، وهو ليس من الدين في شيء ، فاضطر أن يبين ذلك في أثناء بحثه) اهـ من مقدمة « أسباب ونتائج لقاسم أمين » ص(١٠) ، وانظر أيضا (بناة النهضة العربية) لجرجي زيدان ص (١٠١) .

(٤٩) يشير إلى إيقاف مقالات الهجوم على « قاسم أمين » .

كتابه السابق (المصريون)[٥٠] سواء المتعلقة بتقييمه للإنسان المصري، أو المتعلقة بالمرأة المصرية، أو أحكام الشريعة وما يسميه (المدنية الإسلامية)، فبينما نجده في كتابه (المصريون) يصف المصري بالأمانة والشجاعة والذكاء وقوة الاحتمال، ويعزي هذه الخصال الجيدة لحقيقة الهوية الإسلامية للمصري، نجده يقول بعد خمس سنوات في كتابه (تحرير المرأة) : (... فالتركي، مثلا، نظيف صادق شجاع، والمصري على ضد ذلك، إلا أنك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط، إذن لابد أن يكون بينهما أمر جامع، وعلة مشتركة هي السبب الذي أوقعهما معا في حالة واحدة، ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعاً إلا الدين، ذهب جمهور « الأوروباويين »، وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين، إلى أن الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ...)[٥١]، وقد انصرف جهد المؤلف في هذا الكتاب إلى التدليل على مازعمه من أن (حجاب المرأة بوضعه السائد[٥٢] ليس من الإسلام، وأن الدعوة إلى السفور[٥٣] ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده) .

وقد تناول في كتابه هذا أربع مسائل، وهي : الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق، وهو يذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى مايطابق مذهب الغربيين، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام ـــ قال : (سيقول قوم إن ماأنشره اليوم بدعة، فأقول : نعم ! أتيت ببدعة، ولكنها ليست في الإسلام، بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها)[٥٤] .

---

(٥٠) بل لم يحاول نقل كتابه (المصريون) إلى اللغة العربية ولا إعادة إصداره في مصر .

(٥١) (قاسم أمين ـــ الأعمال الكاملة) (٢/٧٢) .

(٥٢) يقصد تغطية المرأة جميع بدنها عن الأجانب .

(٥٣) يقصد به كشف المرأة وجهها .

(٥٤) « تحرير المرأة » ص(٥)، ط محمد زكي الدين بالقاهرة ١٣٤٧هـ .

والذي يهمنا فيما نحن بصدده ، ماكتبه فيما يتعلق بالحجاب :

لقد اعتبر « قاسم أمين » الحجاب (أصلاً من أصول الأدب يلزم التمسك به ، ولكنه يطالب بأن يكون منطبقاً على الشريعة الإسلامية)[٥٥] ، ثم يقول : (إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة) وإنما هي في زعمه (عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها ، وأخذوا بها ، وبالغوا فيها ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين ، والدين براء منها)[٥٦] .

ثم يورد « قاسم » أمين قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾الآيتان[٥٧] .

ثم يقول : (إن الآية قد أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبي عنها ، غير أنها لم تُسَمِّ تلك المواضع ، وقد قال العلماء[٥٨] : إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ماكان معروفاً في العادة وقت الخطاب ، واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية ، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخر كالذراعين والقدمين)[٥٩] اهـ .

ثم ينتقل إلى الكلام على الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها ، وحظر

---

(٥٥) « تحرير المرأة » ص(٥٤) .

(٥٦) « المصدر السابق » ص (٥٧ — ٥٨) .

(٥٧) سورة النور (٣٠ — ٣١) .

(٥٨) كذا ! ولم يُسَمِّ واحداً منهم .

(٥٩) « تحرير المرأة » ص (٥٨) .

مخالطتها بالرجال ، فيقول : (إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبي ﷺ ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾[٦٠] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **يانساء النبي لستن كأحد من النساء** ﴾[٦١] الآية .

أما نساء المسلمين عامة فهن ـــ في زعمه ـــ منهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط[٦٢] اهـ .

ويستمر (قاسم) بنفس التهافت في علاج القضايا الأخرى ، ويزيد على ذلك تهكمه بالفقهاء ، واستهزاءه بعلماء الشريعة ، بل وبنصوصها الصريحة ، كما فعل في قضية تعدد الزوجات ، وهو في كل ذلك يستدل بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية[٦٣] ، ثم يعرض لشرحها شرحاً ملتوياً مغرضاً يوجه لتبرير فكرة معينة ، يحاول أن يسخر النصوص لخدمتها تلبيساً على ضحاياه المخدوعين .

وما أصدق ماقاله بعض معاصريه : (مارأيت باطلاً أشبه بحق من كلام « قاسم أمين » ، بل هذا « أحمد شوقي » يشير إلى لباقة « قاسم أمين » في دعم

---

(٦٠) الأحزاب (٥٣) .

(٦١) الأحزاب (٣٢) .

(٦٢) اقتضت الضرورةُ « عدوَّ المرأة المسلمة » أن يتظاهر في بعض المواضع بمظهر المسلم الوقور الغيور علي دينه ، الحافظ لحدود الله ، المحترم للفقهاء والأدلة الشرعية ، بينما تخلى عن هذا القناع في مثل قوله : (في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لاوطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ... يقول ويكتب ماشاء في ذلك ، ولا يفكر أحد أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة ، واعتقاد صحيح (!) ، كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟) اهـ من (قاسم أمين ـــ الأعمال الكاملة) (١٦٥/١) .

(٦٣) « تحرير المرأة » ص(٦٨) ، هذا وقد وقع في آخر جملة في الكتاب خطأ مطبعي غير مقصود لفظاً ، ولكن لايبعد أن الحكمة الإلهية شاءت أن يقع في محله لأنه مطابق لمقصود الكتاب ، ألا وهو قول « قاسم أمين » : (تم كتاب تجريد المرأة) !

دعوته بالقرآن والسنة ، متسائلاً : أكان « قاسم أمين » يَغَارُ على الإسلام أم يُغير عليه ؟!

ولك البيانُ الجَزْلُ في ... أثنائه العلم الغزيرْ
في مطلبٍ خَشِنٍ كثـ ... ـيرٌ في مزالقه العُثور
ما بالكتاب ولا الحديـ ... ـث إذا ذكرتَهُما نكير
حتى لنسألُ هل تغـ ... ـار على العقائد أم تُغير[٦٤] ؟

وقد علق الدكتور « محمد محمد حسين » ــ رحمه الله ــ على هذا المنهج اللئيم بقوله : (أحب أن أسأل الذين يحاولون أن يسوغوا باطلهم الذي يقحمونه على إسلامنا بمزاعم يتحايلون على إلصاقها بالدين ونصوصه ، أحب أن أسأل سؤالاً حاسماً يفرق بين الحق والباطل : هل تعلمون أن أحداً من المسلمين قد دعا قبل اليوم بدعوتكم ؟ فإذا كان ذلك لم يحدث من قبل فهل تستطيعون أن تزعموا أن صحابة رسول الله ــ ﷺ ، ورضي الله عنهم ــ وفقهاء المسلمين قد غفلوا جميعاً عن فهم نصوص دينهم ، حتى جاء هؤلاء الذين أوحى إليهم شياطين الجن والإنس في باريس من أمثال « قاسم أمين » فانتكس تفكيرهم بين معاهدها ومباذلها ، حين لم يعتصموا من دين الله بحبل متين ، ولم يأووا بهديه إلى ركن شديد ، يذود عنهم كل شيطان مريد ، وذلك حين بُعِثوا إلى تلك البلاد لينقلوا إلينا الصالح النافع من علومها وصناعاتها ، فضلُّوا الطريق ، وعادوا إلينا بغير الوجه الذي بعثوا به ، جاء هؤلاء بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن ليخرجوا للناس حقائق التنزيل التي غاب علمها عن الأولين والآخرين من الفقهاء والمفسرين ، ويضربوا بإجماع المسلمين في الأجيال المتعاقبة والقرون المتطاولة عُرْضَ الحائط ، أليس ابتداء هذه الدعوة في ظل الاحتلال

(٦٤) « الشوقيات » (١٦٨/٢) .

الإنكليزي ، وتزعم فريق من المتفرنجين الذين عرفوا بموالاة ذلك الأجنبي المحتل ، هو وحده دليلاً كافياً على أنها طارئة علينا من الغرب تقليدا لمذاهب أهله المبتدعين في دينهم بأهوائهم وأهواء رؤسائهم ، والخارجين على نصرانيتهم وكتابها) اهـ[٦٥] .

هل كان للشيخ « محمد عبده » (١٨٤٢ ــ ١٩٠٥م) دور في الكتاب ؟

(كان المعروف عن قاسم أمين أنه ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية بحيث يتمكن من إضفاء الصِّبْغَةِ الفقهية على كتابه ، ومن هنا شاع بين الناس وقتها أن مؤلفه في الحقيقة هو أستاذه الشيخ « محمد عبده »)[٦٦] .

قال الدكتور « محمد محمد حسين » : (جاء كتابه ــ تحرير المرأة ــ مملوءاً بالمغالطات سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الأدلة العقلية ، وهذا الاتجاه الذي يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ماهو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ « محمد عبده » متذرعا إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد الذي زعم أن الفقهاء أغلقوا بابه ، وهو يدعو إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية)[٦٧] اهـ .

قال « داود بركات » رئيس تحرير الأهرام : (وقد حمل الشيخ « محمد عبده » الدعوة إلى تحرير المرأة في دروسه في الرواق العباسي بالأزهر ، حين « أعلن » أن الرجل والمرأة يتساويان عند الله ، وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ « محمد عبده » كتب بعض فصول الكتاب ، أو كان له دور في

---

(٦٥) « حصوننا مهددة من داخلها » (ص١٢١ ــ ١٢٢) طبعة المكتب الاسلامي (١٣٩٨هـ) .

(٦٦) « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » (٢٨١/١ ــ ٢٨٢) للدكتور « محمد محمد حسين » رحمه الله .

(٦٧) « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » (٢٨١/١ ــ ٢٨٢) للدكتور « محمد محمد حسين » رحمه الله .

مراجعتها)[٦٨] .

ومما أورده « لطفي السيد » : (أنه اجتمع في جنيف عام ١٨٩٧م بالشيخ « محمد عبده » و « قاسم أمين » و « سعد زغلول » ، وأن « قاسم أمين » أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب « تحرير المرأة » وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ « محمد عبده »)[٦٩]اهـ .

وقالت « وداد السكاكيني » :

(فتح ــ أي محمد عبده ــ على الناس أبواباً جديدة ، تلج منها المرأة المسلمة إلى الحياة ، التي وهبها الخالق إياها ، كما وهبها للرجل ، ولكن النفوس لم تكن هُيِّئت تمام التهيؤ في البداية ، ورأى الإمام ألا يخاطر ، فيلج بنفسه هذا الميدان ، ويرقى مرتقاه الصعب ، فيقف أمام الجهلاء يحاربونه ، فيؤثر ذلك على مركزه كإمام للإصلاح يستند على الدين ، وتضيع بذلك فرص في الإصلاح في الميادين الأخرى ، فهيأ لهذا الميدان بالذات جندياً يصلح له من تلاميذه ، هو « قاسم أمين » ، ثم وقف يسانده ، ويحميه من بعيد ، حتى وصلت الدعوة في تحرير المرأة إلى أبعد مما كان يقصد الشيخ « محمد عبده » .

إذن لم تكن « دعوة قاسم » أمين مبتكرة ، ولا بدعة في سبقها)[٧٠]اهـ .

وقال د. « محمد عمارة » جامع الأعمال الكاملة لـ « قاسم أمين » ومحققها :

---

(٦٨) الأهرام ــ مايو ١٩٢٨م ، وانظر (دحض بدعة المساواة بين الرجل والمرأة) في القسم الثاني من هذا الكتاب . ص(٩٣ ــ ١١٥) .

(٦٩) نقلا عن كتاب (الأخوات المسلمات) ص(٢٤٧)، وانظر (تطور النهضة النسائية) « لإبراهيم عبده » و « درية شفيق » ص(٧٤)، (٧٥) .

(٧٠) « قاسم أمين » لوداد السكاكيني ص (٤٦) .

(... ففي تحرير المرأة وبالذات في الفصول التي تتناول وجهة نظر الشريعة والدين في هذه القضية ، نلتقي بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات لايستطيع أن يبحثها ، ولا أن يستخلصها كاتب مثل « قاسم أمين »، وأهم من ذلك نجد أحكاماً كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد استقصى بحث هذا الأمر في جميع مصادره الرئيسية في الفكر الإسلامي ، على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية ، وهو الأمر الذي لانعتقد أنه قد توافر في ذلك العصر سوى لقلة قليلة في مقدمتهم جميعاً الأستاذ الإمام « محمد عبده »)[٧١] اهـ .

بينما يجزم د. « محمد عمارة » في موضع آخر بهذه النسبة المشار إليها آنفاً بقوله ـــ وهو يعدد إنجازات الشيخ « محمد عبده » ـــ : (ومن أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة ... الفصول التي شارك بها في كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين سنة ١٨٩٩م)[٧٢] اهـ .

وذكرت « درية شفيق » أن دور « محمد عبده » في الكتاب قد (أثار حفيظة بعض الرجعيين الذين اتهموه بالزيغ والكفران)[٧٣] .

وقال الدكتور السيد أحمد فرج ـــ حفظه الله ـــ : [وقد بالغ بعض الكتاب فرأى أن فصولاً كاملة بنصوصها في كتاب « تحرير المرأة » كتبها الشيخ « محمد عبده » من إنشائه، وهي الفصول الآتية :

١ ـــ حجاب النساء من الجهة الدينية ص(٥٩ ـــ ٧٢) .

٢ ـــ الزواج ص(١٢٣ ـــ ١٣٢) .

٣ ـــ تعدد الزوجات ص(١٣٣ ـــ ١٤٠) .

---

(٧١) (قاسم أمين الأعمال الكاملة) المقدمة : دراسة في فكر « قاسم أمين » ص (١٤٤) .

(٧٢) (الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده) ص(١٣٨) .

(٧٣) (تطور النهضة النسائية) ص(٧٨) .

٤ ــ الطلاق ص(١٤١ ــ ١٦٤) .

(محمد عمارة ــ الأعمال الكاملة « لمحمد عبده » ١٠٥/٢ ــ ١٢٩ بيروت ١٩٧٢)، وهذا الادعاء من كاتبه يرد عليه، لأنه يحتاج إلى دليل يوثقه، والأرجح أنها من فكر الشيخ « محمد عبده » وإنشاء كاتبها، فالشيخ هو الذي وجه الأفكار، وأرشد إلى ما يحتاجه الكاتب من نصوص الكتاب والسنة وكتب الفقه الإسلامي، وهو الذي أرشده تبوجيهاته أثناء الكتابة أو قراءة أصول الكتاب قبل طبعه ــ كما جاء في مذكرات « أحمد لطفي السيد » .

والمعروف عن الشيخ « محمد عبده » أنه كان يملي الأفكار، ويوجه إليها أكثر مما يكتب، هكذا فعل مع « قاسم أمين » ومع أشهر تلاميذه في مجال الإصلاح الإسلامي السيد « محمد رشيد رضا »] (٧٤) .

بين « قاسم » و « سعد » .

قال الصحافي (مصطفى أمين) : (كان « قاسم أمين » لا يفترق عن « سعد زغلول »، وكان « قاسم أمين » هو الذي توسط في زواج « سعد زغلول » بصفية زغلول، وكان « سعد زغلول » هو الذي وقف إلى جوار « قاسم أمين » عندما أصدر كتاب (تحرير المرأة)، وهوجم بعنف وضراوة، واتهم بالكفر الدَّ ... ، ومنع من دخول مصر قصر الخديوي بدعوى أنه يدعو إلى الإباحية، وأقفل الناس بيوتهم في وجهه، وذهب عدد من الشبان المتحمسين إلى بيته في شارع الهرم، واقتحموا بيته، وطالبوا « قاسم أمين » أن يسمح لهم بأن يجتمعوا على انفراد تطبيقاً لدعوته إلى سفور المرأة .

عندما أقفل كبار المصريين في وجه « قاسم أمين » فتح « سعد » له بيته،

---

(٧٤) المؤامرة على المرأة المسلمة : تاريخ ووثائق » ص(٧٦ ــ ٧٧) .

ودعاه هو وزوجته ليتناول الغداء والعشاء على مائدته ومائدة « صفية زغلول »، وأصر أن يخرج في عربته مع « قاسم أمين »، ويطوف شوارع العاصمة متحدياً للأصدقاء الذين نصحوه بأن لا يظهر مع « قاسم أمين » في مكان عام، وإلا ضربه الناس بالطوب، وعندما وضع « قاسم أمين » كتابه الثاني « المرأة الجديدة » متحدياً العاصفة الهوجاء، ومطالباً بأن تحضر المرأة مجالس الرجال، وتمارس الأعمال الحرة، أهدي كتابه الجديد إلى « سعد زغلول » صديقه الحميم، ونصيره الأول)[٧٥]اهـ .

دور سعد زغلول :

قال العقاد : (وكان ــ أي « سعد زغول » ــ رجلاً له رأي في المرأة، وفيما ينبغي أن تكون عليه شريكة الحياة، يخالف رأي السواد الغالب في تلك الأوقات، وفي جميع الأوقات، وحسبه من ذلك أنه هو الذي أعان « قاسم أمين » زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه في « تحرير المرأة » وتشجيعه على احتمال مالقي في سبيله من سخط وعناء)[٧٦]اهـ .

وقال الدكتور « السيد أحمد فرج » ــ حفظه الله ــ : (والرأي أنه لم يكن في استطاعة « قاسم أمين » أن يبرز نفسه بهذه الآراء الجريئة ــ في ذلك العصر ــ لولا تعضيد الإمام « محمد عبده »، وأحد تلاميذه الذي صار زعيماً للأمة « سعد زغلول » باشا، وقد بلغ حب « قاسم أمين » لهما مبلغاً كبيراً، فأهدى كتابه الثاني « المرأة الجديدة » لسعد زغلول، واستشهد على صحة أقواله فيه، بمباركة الشيخ « محمد عبده » لها، وبنشركل بنود اقتراح الشيخ في شأن

(٧٥) نقلاً عن « جريدة المساء » الخميس ٤ أغسطس ١٩٨٣ مقالة بعنوان (هل انتحر محرر المرأة ؟) . هذا وقد ذكر الصحافي (مصطفى أمين) في مقالته هذه أنه حدثت قطيعة بين الصديقين حتى الموت تسببت من لعب « قاسم أمين » بالورق « القمار » حتى خسر مبالغ طائلة أودت بثروته، وأثقلته بالدَّيْن .

(٧٦) (سعد زغلول) تأليف « عباس محمود العقاد » ص(٥٢٧) .

إصلاح قانون الأحوال الشخصية في آخره .

و« سعد زغلول » ــ في الحقيقة ــ هو الذي ضمن تنفيذ أفكار « قاسم أمين » تنفيذاً عملياً ، فقد رحل الشيخ « محمد عبده » سنة ١٩٠٥ ، ورحل تلميذه « قاسم أمين » بعده بسنوات قليلة ، وكان في ميعة شبابه ، ثم بقي « سعد زغلول » ، وقد أهَّلته مواهبه الفذة أن يقود المجتمع ، ويكيفه كما يريد ، وكان قادرا خاصة وأن الظروف الاجتماعية والفورة الوطنية قد هيأتا الناس لتقبل الأفكار الجديدة ، ووضعها موضع التنفيذ العملي ، « فقد ظل العقلاء ــ كما سماهم « جرجي زيدان » ــ يتهامسون في موضوع تحرير المرأة ... حتى صرح الشيخ « محمد عبده » بآرائه ، فكثر مريدوه ، والمُؤَمِّنون على أقواله وأول أولئك « قاسم أمين »(٧٧) ، و « سعد زغلول » المنفذ الحقيقي لهذه الأفكار)(٧٨) اهـ .

وأيًّا ماكان الأمر فقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة لأنه صادر من (مسلم) يشغل وظيفة مستشار في الدولة ، سبق له أن هاجم أعداء الحجاب منذ وقت قريب ، ولم تقتصر هذه الضجة على الأوساط الإسلامية الغيورة على دينها ، بل شملت الأوساط « الوطنية » و « الأدبية » .

ردود فعل كتاب « تحرير المرأة » :

تجلت ردود الفعل في موجة عارمة من المعارضة ، كان أكثرها مقالات صحافية ، وقد اتهمه المعارضون بالهذيان ، وبأنه ممن تخطف زخارف التمدن الغربي بصائرهم ، يرى المحاسن ، ولا يرى المساوىء ، وهاجمه علماء الدين هجوماً عنيفاً ، وحكم الفقهاء بأنه خرْقٌ في الإسلام ومروق من الدين ، وعدها الكثيرون ضرباً من

(٧٧) « بناة النهضة العربية » « لجرجي زيدان » ص (١٠٥) .

(٧٨) « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص(٦٤) .

المبالغة في تقليد الغربيين ، واتهمه آخرون بالجناية على الدين ثم الوطن ، وأنه يرمي إلى قلب الهيأة الاجتماعية المصرية ، وممالأة الإنكليز على ضياع البلاد ، وأنه ينفذ أمنية من أماني الأمم الصليبية التي تريد بها هدم الإسلام ، وتقويض الآداب والأخلاق ، وتحريض النساء على الفساد ، واتهموا من يعضد هذه الدعوة بأنه ليس من المسلمين .

وبادر إلى مناصرة « قاسم » حفنة من الكتاب وعلى رأسهم (جرجي نقولا باز) الذي ألف تأييداً لقاسم كتابين أحدهما : (إكليل غار على رأس المرأة) ، والآخر : (النسائيات)[٧٩] .

ولم يكتف دعاة الحق وأنصار الحجاب بالمقالات العنيفة ، بل ألفوا الكتب العديدة (التي بلغ عددها مائة كتاب)[٨٠] تبطل شبهات قاسم وتقيم الحجة عليه من أدلة الشريعة المطهرة .

من هذه الكتب :

(« السنة والكتاب في حكم التربية والحجاب » لمحمد إبراهيم القاياتي .

ومنها : « الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس » لمحمد أحمد حسنين البولاقي .

ومنها : « خلاصة الأدب » لحسين الرفاعي .

ومنها : « نظرات في السفور والحجاب » لمصطفى الغلاييني .

ومنها : « قولي في المرأة » لمصطفى صبري .

ومنها : « رسالة في مشروعية الحجاب » لمصطفى نجا .

---

(٧٩) « قاسم أمين » د.« ماهر حسن فهمي » ص(١٧٢) .

(٨٠) « تطور النهضة النسائية » ص(١٢) .

ومنها : « رسالة الفتى والفتاة » لعبد الرحمن الحمصي)[81] .

موقف « محمد طلعت حرب » :

على أن أول كتاب ألف في الرد على « قاسم أمين » هو كتاب « تربية المرأة والحجاب » وهو أهم ماأُلِّفَ وأعمقه أثراً ، ألفه « محمد طلعت حرب » الذي اقترن اسمه فيما بعد ــ وللأسف ــ بشئون الاقتصاد الربوي ، وقد استنكر في كتابه هذا على « قاسم » دعوته ، ودافع عن الحجاب[82] .

ويبدأ الكتاب بمقدمة يثبت فيها المؤلف أن المستعمر الغربي يجاهد بكل الطرق ليغير وضع المرأة المسلمة ، كأنما وكلتهم المرأة للدفاع عنها ، وما ذلك إلا ليثبتوا أن الشريعة الإسلامية قد ظلمتهن ، أما هدفهم البعيد فهو التدخل في شئون المسلمين باسم الإنسانية ، وفرنجة المرأة في المجتمع الشرقي لتنحل مقوماته الاجتماعية ، قال : (إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربة من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربة بالعالم الإسلامي) ، وقال أيضاً : (إنه لم يبق حائل يحول دون هدم المجتمع الإسلامي في المشرق لا في مصر وحدها ــ إلا أن يطرأ على المرأة المسلمة التحويل بل الفساد الذي عمَّ الرجال في المشرق) .

وهو يذكر أن الخديو « إسماعيل » حين أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية وعد ملوك أوربة ــ إن هم أيدوه من أجل تحقيق هدفه ــ أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية ، فيفصل السياسة عن الدين ، ويطلق

---

(٨١) « قاسم أمين » د.« ماهر حسن فهمي » ص(١٦٤ ــ ١٦٥) .

(٨٢) ولمحمد طلعت حرب كتاب آخر في الرد على « قاسم أمين » هو : « فصل الخطاب في المرأة والحجاب » شن فيه حملة عنيفة على ضلالات قاسم ، ووقفت كثرة الشعب في جانبه ، وأيدته ، فاستُهدف قاسم للإهانة تلو الإهانة (انظر : « تطور النهضة النسائية » ص «٧٠») .

الحرية للنساء ، بحيث يَسِرْنَ في أثر المرأة الغربية ، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوربية .

وذكر أن الحرية كانت دائماً شعار الإسلام فكان أولى بقاسم أن يجعل عنوان كتابه « تربية المرأة » بدلاً من « تحريرها » ، ثم يقول « طلعت حرب » : (ومن عجيب المصادفات أن الذي يقرأ « الرحلة الأصمعية » التي طبعت باللغة التركية سنة ١٨٩٣ في مصر ، يقرأ فيها الاعتراضات التي وجهها الأوربيون إلى مؤلف الرحلة فيما يختص بوضع المرأة المسلمة ، فإذا ماقرأنا « تحرير المرأة » لقاسم أمين وجدناه يردد نفس الاعتراضات ، فهل هذا يرجع إلى توارد خواطر ؟

ويتحدث طلعت حرب في الباب الأول من كتابه عن وظيفة المرأة ، فيقرر أن الأديان[٨٣] جميعاً تنفي مساواة المرأة بالرجل مساواة كاملة ، ويورد النصوص من التوراة والانجيل والقرآن ، التي تؤكد سيادة الرجل وحسن المعاملة والتقدير للمرأة ، ويقرر أن سعادة الأسرة لاتكون بوجود قائدين في بيت واحد ، وإنما تكون بتوجيه الرجل توجيهاً حكيماً .

ثم قال : (إن للمرأة أعمالاً غير ماللرجل ، ليست بأقل أهمية من أعماله ، ولا بالأدنى منها فائدة ، وهي تستغرق معظم زمن المرأة إن لم نقل كله : الرجل يسعى ، ويكد ، ويشقى ، ويتعب ، ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله ، وامرأته ترتب له بيته ، وتنظف له فرشه ، وتجهز له أكله ، وتربي له أولاده ، وتلاحظ له خدمه ، وتحفظ عينه عن المحارم ، وهو يسكن إليها ...)[٨٤] .

---

(٨٣) اعلم ــ رحمك الله ــ أنه لايصح إطلاق كلمة « الأديان » ! هكذا مجموعة في سياق التقرير والاحتجاج بها ، لأن الدين واحد هو الإسلام ، الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (آل عمران : ١٩) ، والشرائع هي التي تختلف من نبي لآخر قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ (المائدة : ٤٨) والله أعلم .

(٨٤) « تربية المرأة والحجاب » ص(١٧) طبعة القاهرة .

وينتقل إلى الباب الثاني فيتناول تربية المرأة ، ويؤكد أن (الشريعة قد حثت على التربية الخلقية التي تضمن إصلاح النفس ، وعمار الكون وضمان السعادتين ، وكان السلف الصالح يُعَوِّدون أبناءهم عليها ، فيشبون وقد تشبعوا بمكارم الأخلاق ، ولم تُوَلِّ الدنيا عنا إلا يوم أهملنا تلك التربية ، ثم دهمتنا المدنية الغربية بما بها من مظاهر خادعة ، فحسبناها منتهى مايدركه الإنسان من الكمال ، فتسابقنا إلى التشبه والتقليد .

فإذا كنا نريد إصلاحاً حقيقياً فلننظر إلى مدنيتنا الإسلامية ، ولنقتبس منها أسس التربية السليمة لكل أفراد المجتمع من بنين وبنات) .

ثم ينتقل إلى أهم نقاط البحث ، وهي مشروعية الحجاب ، فيعرض لقوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ... ﴾ وينقل من أحاديث رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضي الله عنهم أن المقصود ستر الوجه لأنه أعظم زينة للمرأة ، أما ماجاء في قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها** ﴾ فهي الكحل والخضاب ، ثم كيف يمكن الاختلاط مع غض البصر ؟

وإذا كان « قاسم أمين » يرى أن الحجاب خاص بنساء النبي ﷺ ، وأن قوله تعالى : ﴿ **يانساء النبي لستن كأحد من النساء** ﴾ (الأحزاب : ٣٢) فيه معنى التخصيص ، فإن قوله تعالى : ﴿ **ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ (الأحزاب : ٥٩) قد قطع كل شك في وجوب الحجاب ، وقد اعتمد « قاسم » على رأي بعض الفقهاء في إباحة كشف الوجه واليدين والقدمين ، مع أن رأي الفقهاء في هذه الإباحة كان خاصًّا بالصلاة وحدها ، لا بقضية الحجاب والسفور .

على أن من يقول بجواز النظر لوجه المرأة عند أمن الفتنة قد قضى بتحريم ذلك على الإطلاق خصوصاً في هذه الأيام ، حيث نشاهد تبذل الشباب واستهتارهم كل

حين ، فما بالنا لو خلعت المرأة الحجاب ، وأطلقنا لها الحرية ؟

إن الإحصائيات تثبت أن المرأة الشرقية ــ بسبب الحجاب ــ أكثر نساء العالم تعففاً ، ولا نريد أن نمزق ستار العفاف .

وإذا كان « قاسم » يتساءل : لماذا اختص النساء بالاحتجاب والتبرقع دون الرجال ، وكلاهما مأمور بغض الأبصار ؟ ، فالإجابة واضحة ، إذ من المسلم به أن لكل من الزوجين وظيفة اختص بها ، وكانت وظيفة الرجل خارج بيته للسعي على معاشه ، ووظيفة المرأة منزلية داخل البيت وخروجها للضرورة ، فتكليفها بالتبرقع دون الرجل أكثر ملاءمة لظروفها .

أما ماقيل عن علم عائشة رضي الله عنها فهو حجة على قائله ، لأنها كانت محتجبة حجاباً تامًّا بالإجماع ، ولم يمنعها الحجاب من التفقه في أمور الدين والمشاركة في أمور الحياة ، وكذلك كان كل النساء المسلمات اللائي نبغن ، وبلغن درجة من العلم والكمال ، فالحجاب لم يمنع من تحصيل العلم ولا تدريسه ، وإذا كان الحجاب هو المانع من الترقي ، فلِمَ لم يترقَّ كل الرجال ؟

ولو نظرنا إلى المرأة الأوربية ، لوجدنا الأمر يرجع إلى حاجة أوربة للأيدي العاملة بسبب ظروف حياتها ، فخرجت النساء لمساعدة الرجال على الكسب والتعمير ، فلما ابتذلت المرأة هناك أعرض الشباب عن الزواج ، فاضطرت المرأة أن تستمر في العمل لتعيش ، على أن الناظر إلى المرأة الشرقية الآن[٨٥] ، يراها قد خرجت ، وأقبلت على ملاذِّ الدنيا ، وأغرتنا الحضارة الأوربية على التساهل ، وسيسير الزمن بنا ــ باسم الحرية والمدنية ــ حسب التخطيط الذي يدفعنا الأجنبي إليه إلى أن تصبح المرأة الشرقية مثل الأجنبية ، مالم نبادر إلى تقييد تلك الحرية لا إطلاقها ،

---

(٨٥) طبع الكتاب سنة ١٨٩٩م .

وإلى تحرير الرجل قبل المرأة من الجهالة والفساد .

ويختم « طلعت حرب » كتابه قائلاً : (الحجاب أصل من أصول الأدب ، فيلزم التمسك به ، إلا أن المطلوب أن يكون منطبقاً على ماجاء به الشرع)[٨٦] .

موقف « محمد فريد وجدي » :

ونشر « محمد فريد وجدي » في (المؤيد) و (اللواء) بضع مقالات قال في بعضها :

(إذا أشرنا اليوم بوجوب كشف الوجه واليدين ، فإن سنة التدرج سوف تدفع المرأة إلى خلع العذار للنهاية في الغد القريب كما فعلت المرأة الأوربية ، التي بلغت بها حالة التبذل درجة ضَجَّ منها الأوربيون أنفسهم ، وبدلاً من أن نضرب الأمثلة بالغرب دائماً ، ينبغي أن نولي وجوهنا إلى عظمة مدنيتنا الإسلامية الماضية)[٨٧] .

ويتهكم أحد الكتاب بالدعوة إلى خروج المرأة للعمل ، ويحاول أن يتصور المرأة ، وقد خرجت إلى معترك الحياة تعمل ، فإذا البيوت مقفرة ، والشوارع مزدحمة بالرجال والنساء ، والمحال التجارية وقف بها المتحككون بالنساء البائعات ، أما الزي فخليط عجيب ، امرأة بقبعة ، وأخرى بغيرها ، والمقص قد تحيف الجيوب والذيول والأكمام ، والتصقت الملابس بالمرأة ، حتى صارت كبعض جسمها ، ثم يتساءل قائلاً : (أهذا مانريده ؟ إن مانريده حقاً هو تربية المرأة قبل كل شيء)[٨٨] .

---

(٨٦) السابق ص(١٠٥) .

(٨٧) « قاسم أمين » د.« ماهر حسن فهمي » ص(١٦٢) .

(٨٨) السابق ص(١٦٣) .

موقف « مصطفى كامل » (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) :

كان للكتاب دويٌّ شديد في الأوساط الوطنية ، لأنه كان بمثابة تحدٍّ صريح للرأي الإسلامي العام ، وهجوم سافر ضد الإسلام ، لذلك لم يكن عجباً أن يقف الحزب الوطني المصري ، أو بمعنى آخر أن يقف « مصطفى كامل » من هذه الحركة موقف المقاومة والعناد ، إذ تحسس وراءها الأصابع البريطانية ، فربط بين هذه الحركة التي يديرها ذلك النادي الذي جمع أذناب الاستعمار وبين الإنكليز على أنها وسيلة من وسائله المتلونة في القضاء على مقومات الأمة ، فسارع إلى مقاومة هذه الحركة الخائنة وتحذير الأمة منها ، فأشار إليها في أول اجتماع عام عقده عقب صدور ذلك الكتاب في الخامس من شعبان سنة (١٣١٧هـ) ، الموافق الثامن عشر من سبتمبر (١٨٩٩م) ، حيث قال :

(إني لست ممن يرون أن تربية البنات يجب أن تكون على المبادىء الأوربية ، فإن في ذلك خطراً كبيراً على مستقبل الأمة ، فنحن مصريون(*) ويجب أن نبقى كذلك ، ولكل أمة مدنية خاصة بها ، فلا يليق بنا أن نكون قردة مقلدين للأجانب تقليداً أعمى ، بل يجب أن نحافظ على الحسن من أخلاقنا ، ولا نأخذ عن الغرب إلا فضائله ، فالحجاب في الشرق عصمة وأي عصمة ، فحافظوا عليه في نسائكم وبناتكم ، وعلموهن التعليم الصحيح ، وإن أساس التربية التي بدونه تكون ضعيفة ركيكة غير نافعة ... هو تعليم الدين)[٨٩] اهـ .

وقد بلغ « بمصطفى كامل » الاهتمام بمقاومة هذه الحركة المسمومة إلى الحد الذي جعله يفتتح صدر صحيفة (اللواء) منذ أول ظهورها سنة (١٩٠٠م) لكل طاعن على « قاسم أمين » وأفكاره ، فكانت « اللواء » ـــ كما يقول الدكتور

(*) الواجب أن يقول : (فنحن مسلمون) ، وإلا فما قيمة المصريين أو غيرهم بدون الإسلام ؟

(٨٩) « الحركات النسائية » ص(١٦ ـــ ١٧) .

« محمد حسين هيكل » ـــ : (خصماً لدوداً لقاسمٍ وأفكاره ، وكانت ميداناً لأشد المطاعن عليه)[٩٠] اهـ .

وكتب (مصطفى كامل) في (اللواء) (٣١ يناير ١٩٠١) يؤكد على (وجوب الالتفات إلى تربية النساء فهي دعوة يوافق عليها كل مثقفي الأمة ، أما الحرية للمرأة فلا محل للحديث عنها الآن ، وعملية التطور الطبيعي تسير سيرها المحترم ، وفرق بين التطور والتطوير القسري ، الذي لايُؤمَنُ معه من سوء العاقبة ، فإن الرجل منا أهون عليه أن يموت ؛ من أن يرى من أهله أو من بيته امرأة فاسدة ، ولو كانت بهجة العلم وحليته) .

ثم يخدش قاسماً ـــ وما أصاب ـــ فيقول : « ولست أدري إذا كان هذا الشعور شعوراً طبيعياً عند كل الرجال أو منشؤه الميراث الذي يحمله كل منا في دمه من أخلاق آبائه وأجداده ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن الحرية التي تقتل العصمة ، شرٌ عندي من الحجاب القاتل للرذائل)[٩١] .

أثر كتاب « تحرير المرأة » في العراق والشام :

واجه الكتاب هناك معارضة عنيفة لا تقل عن التي واجهها في مصر ، وأعلن المعارضون لقاسم أن الدعوة إلى خروج المرأة المسلمة اقتداءاً بالغربية ، دعوة لا تستند إلى حجة مقبولة ، لأن الغربية لم تناد بالخروج إلى المجتمعات وإلى الحرية المطلقة ، وإنما الرجال هناك هم الذين دفعوها إلى العمل تخلصاً منها ، وطمعاً في الانتفاع بتعبها ، فكانت النتيجة أن استُدْرِجَتْ إلى مواقف لم تأمن معها من الزلل ، وفقدت بيتها ،

---

(٩٠) « تراجم مصرية وغربية » للدكتور محمد حسين هيكل باشا ص(١٤٢) .

(٩١) « قاسم أمين » تأليف د. ماهر حسن فهمي ص(١٦٠) ، ومما يلزم التنبيه إليه أن هذا الأسلوب المتضمن للهمز واللمز يأباه الإسلام الذي يَعلو ولا يُعلى ، والذي يعد الدعوة القومية ، والعصبية الوطنية جاهلية خبيثة منتنة .

وفقدت أنوثتها، وإذا كان التاريخ يستفظع وأد بعض رعاع العرب لبناتهم تخلصاً من العار، فكم يكون استفظاعه لحياة كثيرات من الفتيات في هذه المدنية التي يود البعض أن نقتدي بها ؟!

وثار علماء الدين في الشام ثورة عنيفة ضد « قاسم أمين » فأعلنوا أن دعاة السفور هم دعاة فساد، لأنه يخالف ما أمر به الدين، ولأن السفور يقود الناس حتماً إلى المجون وهدم القيم، وبذلك تنحل كل الروابط الاجتماعية(٩٢) .

الإنكليز يترجمون الكتاب وينشرونه :

وقد كتب « مصطفى كامل » في (اللواء) بتاريخ (٩ فبراير سنة ١٩٠١م) يقول : (هذا، وقد انتشر خبر كتاب « تحرير المرأة » في جهات الهند، واهتم الإنكليز بترجمته وبث قضاياه، وإذاعة مسائله اهتماماً عظيماً، لما وراء العمل به من فائدة لهم) اهـ .

من مواقف الشعراء :

وكان للحركة صدى عميق في نفوس الأدباء والشعراء(٩٣)، وهذا (أحمد محرم)(٩٤) الذي أعجب به « مصطفى كامل » وطالما أشاد به وبشعره على صفحات (اللواء) يقول مستنكراً دعوة « قاسم أمين » :

أغرَّكِ ياأسماءُ ماظـن قاسمُ !؟ أقيمي وراء الخِدر(٩٥) فالمرء واهمُ

---

(٩٢) السابق ص(١٦٣ ــ ١٦٤) .

(٩٣) كان أكثر شعراء تلك الفترة من أهل الرأى والفكر، ولم يكونوا مجرد نظاميين .

(٩٤) « أحمد محرم » (١٨٧١ ــ ١٩٤٥) عده الأدباء في الطبقة الأولى من شعراء جيله، وسلكوه في صف شوقي وحافظ، وطبع شعره الإسلامي بعنوان (الإلياذة الإسلامية) سنة ١٩٦٣ .

(٩٥) الخدر : ستر يمد للجارية في ناحية البيت، وجارية مخدَّرة ومخدورة إذا ألزمت الخدور، وانظر « لسان العرب » (٣١٢/٥ ــ ٣١٥) .

تضيقين ذرعاً بالحجاب وما به سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق في الشرق كله إذا ماستبيحت في الخدور الكرائم
أقاسم لا تقذف بجيشك تبتغي بقومك والإسلامِ ما الله عالم
لنا من بناء الأولين بقيـة تلـوذ بها أعراضنـا والمحارمُ
أسائل نفسي إذ دَلَفْتَ[٩٦] تريدها آأنت من البانين أم أنت هادم ؟
ولولا اللواتي أنت تبكي مُصابَها لما قام للأخلاق في مِصْرَ قائمُ
نبذت إلينا بالكتاب[٩٧] كأنما صحائفه مما حَمَلْنَ ملاحِمُ[٩٨]
ففي كل سطر منه حتفٌ مفاجيءٌ وفي كل حرف منه جيشٌ مهاجِمُ

إلى أن يقول :

لنا في كتاب الله مجدٌ مُؤَثَّلٌ[٩٩] ومُلْكٌ على الجِذْثانِ[١٠٠] والدهر دائم
إذا نحن شئنا زلزل الأرضَ نابُنا ودامت لنا أقطارها والعواصمُ

* * *

همُمنا بربات الحجال[١٠١] نريدُها أقاطيع ترعى العيش وهي سوائمُ
وإنَّ امرءاً يُلقي بليل نعاجه إلى حيث تَسْتَنُّ الذئابُ لظالمُ
وكُلُّ حياة تُثْلِمُ العِرْضَ سُبَّةٌ ولا كحياة جَلَّلتها المآثمُ
أتأتي الثنايا الغر والطُّرَرُ[١٠٢] العلى بما عجزت عنه اللحى والعمائم ؟

---

(٩٦) دلفت : أي تقدَّمت .
(٩٧) يشير إلى كتاب « تحرير المرأة » .
(٩٨) جمع ملحمة : وهي الوقْعة العظيمة القتل .
(٩٩) أي الحسيب الأصيل العظيم الشريف .
(١٠٠) الجِذْثان : الثَّوب .
(١٠١) الحَجْل بفتح الحاء وكسرها : الخَلْخَال .
(١٠٢) الطُّرر : جمع طُرَّة : جانب الثوب الذي لا هُدْبَ له، وطرف كل شيء .

فلا ارتفعت سفن الجواء بصاعد إذا حلقت فوق النسور الحمائم
عفا الله عن قوم تمادت ظنونُهُمْ فلا النهج مأمون ولا الرأى حازم
ألا إن بالإسلام داءً مخامراً وإن كتاب الله للداء حاسم(١٠٣)

★ ★ ★

وهاجم الشاعر العراقي « البناء » السفوريين ، وخاطب المرأة قائلاً :

وجوه الغانيات بلا نقاب تصيد الصيد في شَرَكِ العيون
إذا برزت فتاة الخِدْرِ حسرى تقود ذوى العقول إلى الجنون

وهذا الشاعِر « جواد الشبيبى » يقول مستنكراً الدعوة الأثيمة :

منع السفورَ كتابُنا ونبيُّنا فاستنطقى الآثارَ والآياتِ
تلك الوجوه هي الرياض بها ازدهت للناظرين شقائق الوجنات
كانت تكتم في البراقع خفية من أن تمس حصانة الخَفِرات(١٠٤)
واليوم فَتَّحَها الصبا فتساقطت بعواطف الألحاظ والقبلات
صونى جمالك بالبراقع إنها ستر الحسان ومظهر الحسنات
وضعى الصدار على الترائب إنه حق عليك فحق نهدك نات(*)
وتماثلى في البيت صورة دمية مكنونة الأعضاء في الحبرات(١٠٥)

وفي قصيدة للأزدى يعارض بها « الرصافى » ، ويخاطب بنت بغداد (كريمة الزوراء) ، ويحذرها من ضلال السفوريين ، ويبصرها بعواقب مسلكهم الوخيم ، يقول :

---

(١٠٣) ديوان محرم (٢/٦٣ ــ ٦٥) الطبعة الأولى (١٣٣٨هـ ــ ١٩٢٠م) ــ مطبعة الفتوح بدمنهور .

(١٠٤) امرأة خَفِرة : أي شديدة الحياء .

(*) كذا بالأصل !

(١٠٥) انظر « قاسم أمين » للدكتور « ماهر حسن فهمي » ص(١٧٣) .

أولم يروا أن الفتاة بطبعها كالماء لم يُحفظ بغير إناء
من يكفل الفتيات بعد ظهورها مما يجيش بخاطر السفهاء ؟
ومن الذي ينهى الفتى بشبابه عن خدع كل خريدة حسناء ؟

إلى أن يقول :

نص الكتاب على الحجاب ولم يبح للمسلمين تبرج العذراء
ماذا يريبك من حجاب ساترٍ جيدَ المهاة[١٠٦] وطلعة الذلفاء[١٠٧]
ماذا يريبك من إزارٍ مانع وزر الفؤاد وضلة الأهواء
ما في الحجاب سوى الحياء فهل من التهذيب أن يهتكن ستر حياء
هل في مجالسة الفتاة سوى الهوى لو أصدقتك ضمائر الجلساء
شيد مدارسهن وارفع مستوى أخلاقهن لصالح الأبناء
أسفينة الوطن العزيز تبصرى بالقعر لا يَغْررك سطح الماء[١٠٨]

وهذا « أديب التقى » يحذر من السفور كذريعة إلى الخلاعة والدمار الاجتماعي :

كيف ترضى بأن ترى حاسرات يتملى وجوهها الفجَّار
واتخذن الخلاعة اليوم خلقا هو للشعب لو أفاق دمار[١٠٩]

وفي السودان هاجم الشيخ « حسيب على حسيب » بعنف دعاة السفور فقال :

دَعُوا في خِدْرِها ذات الدلالِ فقد أرهقتموها بالجدالِ
رأيت شعورَها الحسَّاس مضنًى على هذا الجمود عن المعالى
تذوب وقد تناظرتم حياء بفحش اللفظ أو هُجْرِ المقال
ويعلو خَدَّها خَفَرٌ ينادى ألا يا للنساء من الرجال

---

(١٠٦) الجيد ــ بالكسر : العنق أو مُقَدَّمُه، و (المهاة) : الشمس، والبقرة الوحشية .

(١٠٧) الذَّلَفُ : صِغَر الأنف .

(١٠٨) « الأدب العصري » (٥٦/٢) طبعة القاهرة (١٩٢٣) .

(١٠٩) « الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام » ص(١٤٤) طبعة القاهرة (١٩٥٨) .

زعمتم تعشقون لها صلاحاً فظنى أن ذا عشق الجمال
ومسألة « السفور » غَدَتْ قديماً لدى الكُتَّاب مشكلة النضال
وما أحد لها يدعو فماذا يريد الناس من قيل وقال
أحباً في مناجاة الغواني تُرى .. أم ذاك زهداً في المعالى
بلى فالعلم عندهم كريم ولكن المُتَيَّمَ غيرُ سال
دعوها فهي تؤلمها كثيراً سهام المصلحين بلا اعتدال
عجبت لحلمهم في كل خطب وإن ذُكر البناتُ دَعَوْا نَزَال

وقال آخر :

زعموهن بالحجاب عن العلـ ـم ونور العرفان محتجباتِ
بنت مصر كالشمس يحجبها الليل وراء الآفاق والظلمات
وهي في أفقها ضياء ونور ساطع في بدورها النيراتِ
أوهِيَ المسك ينفذ العَرْفُ منه من وراء الأستار والحجرات

انتهى من « التيار التراثى العربي الحديث » د . سعد دعيبس ص (١٤٨) .

الخطوة الثالثة :

كتاب « المرأة الجديدة »

لم يلبث مؤلف (تحرير المرأة) حين واجه هذه المعارضة التي أحرجته كثيراً أن « أسفر » عن وجهه الحقيقي ، وخلع عنه ثوب الحياء ، وقناع التدين ، وكشف في جرأة وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي ، وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذي بدأ فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً ، فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة ، التي ترفض كل المُسَلَّمات والعقائد السابقة ، سواء منها ما جاء من طريق الدين ، وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع

على حسب المنهج الذي يسلكه باحثو الاجتماع الأوروبيون، وهو ما يسمونه بـ (المنهج العلمي)[110]، فتراه يعتمد على آراء مفكري الغرب، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية.

وبينما كنت تراه هادئاً في كتابه الأول، يحوم حول النصوص الإسلامية، ويمتص من رحيقها، لتعضيد مواقفه في المطالبة بحقوق المرأة، انقلب في الكتاب الثاني، يسلط حمم غضبه، ويستعمل عبارات قاسية في التعبير عن رأيه، عبارات لا تقرها المرأة ذاتها، فهو لا يقبل ـــ بزعمه ـــ « حق ملكية الرجال للنساء »، ويرى ترك حرية النساء للنساء حتى ولو أدى الأمر إلى « إلغاء نظام الزواج، حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة، لا تخضع لنظام، ولا يحددها قانون »[111]..

و « المرأة الجديدة » التي قصدها « قاسم أمين » هي المرأة الأوربية التي أراد من المصرية أن تتحول إليها، وتتخذها مثلاً أعلى، قال « قاسم » : (هذا التحول هو كل ما نقصد، وغاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال، وأن تكون مثلها تحرراً، فالبنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن، ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض وحدهن، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة، متنقلات من بلد إلى أخرى، ولم يخطر

---

(١١٠) « المرأة الجديدة » ص(٧٥)، ومما ينبغي التنبه له أن هذا الذي يسميه علماً ليس علماً بالمعنى الصحيح للكلمة، إلا فيما يتصل بالفروع التجريبية كالطبيعة والكيمياء والهندسة والطب، أما ما يتصل منه بالنفس والاجتماع والأخلاق فإنه لا يزيد على أنه فروض لحل بعض المشكلات، ونظريات لتعليل ما غاب عن الحس، ولذلك فهو دائماً موضع أخذ ورد حتى بين دارسي الغرب، ولا ننسى أن هذه الدراسات النفسية والاجتماعية قد أصبحت موجهة، وتسخر لخدمة المذاهب والأحزاب السياسية المختلفة، وأن بعضها يتذرع باسم (العلم) ليهدم الدين والخلق، ويفرض السياسات الاستعمارية، انظر: «الاتجاهات الوطنية» (١ / ٢٨٣).

(١١١) « مبادىء السياسة والأدب والاجتماع » لأحمد لطفي السيد ص(١٧٣) ـــ كتاب الهلال ١٣٨٣هـ ـــ ١٩٦٣م.

على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما ، وكان من تحررها أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، والرجل يرى أن زوجته لها أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها)[١١٢] .

وطلب قاسم أمين من المصريين أن يتخلصوا مما وقر في أنفسهم من أن عاداتهم هي أحسن العادات ، وأن ما سواها لا يستحق الالتفات ، وقال : (إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجرى في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجرى نقده للحوادث الاجتماعية على أسلوب علمي) ص ٧٥ ، ويقول في موضع آخر : (إن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في الملَكات) ، ويستشهد في معرض كلامه عن أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة بكلام كاتب إيطالي يقول : (إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وإن اختلاف الأجواء لا أثر له في ذلك) ، ثم يقول في موضع آخر : (لما تخلصت المرأة المصرية من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة ، وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء : أول جيل يظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاءً عظيماً قد حل بهم ، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية ، ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها ، وتشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً ، وترتقي ملكاتها العقلية والأدبية ، وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوي بالتربية ، حتى تصير إنساناً شاعراً بنفسه)[١١٣] ، ويقول في موضع آخر : (إننا قد ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم ــ حسب زعمه ــ على الغزو والنهب ، ومن ثم لم

(١١٢) « آثار باحثة البادية » ص(٢٧٤) .

(١١٣) « المرأة الجديدة » ص (٧٠ ــ ٧١) .

يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة، ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه، ليشب مقاتلاً لا عالماً فاضلاً، وصورة المرأة هذه التي ورثها المسلمون ــ حسب زعمه ــ عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي، ولكنها مزورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل)اهـ.

وكان معارضو « قاسم أمين » يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى حضارتنا الإسلامية وحدها، فقام هو بالرد على ذلك بأن (الحضارة الإسلامية قامت على دعامتين : الأساس الديني الذي كوَّن من القبائل العربية أمة واحدة، والأساس العلمي الذي ارتفعت به الأمة الإسلامية وآدابها)، ثم يزعم أن العلم وقتذاك كان ضعيفاً في أول نشأته، وكانت أصوله ضرباً من الظنون التي لم تؤيدها التجربة، ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين، فتغلب الفقهاء على رجال العلم، ووضعوهم تحت رقابتهم، وزجوا بأنفسهم في المسائل العلمية، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التي يؤولونها، وبذلك حملوا الناس « حسب زعمه » على إساءة الظن بالعلم، فنفروا منه وهجروه، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعاً باطلة إلا العلوم الدينية، بل قالوا في العلوم الدينية نفسها : إنها يجب أن تقف عند حَدٍّ لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ثم تقدمت العلوم، وظهرت المكتشفات الحديثة، واستطاع العلم أن يشيد بناءاً لا يمكن لعاقل أن يفكر في هدمه، وتغلب رجال العلم على رجال الدين)[١١٤]، وينتهي « قاسم أمين » من هذا العرض

---

(١١٤) إن محاولة « قاسم أمين » إلقاء العداوة بين العلم والدين ما هي إلا مظهر من مظاهر التبعية العمياء للغرب حين سادت العداوة بين النصرانية وبين العلوم التجريبية، وفي سحب هذا الحكم على الإسلام والمدنية الإسلامية مغالطة تكشف عن جهل بالواقع التاريخي من جهة، وبحقائق الدين والعلم من جهة أخرى ــ راجع كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للشيخ أبي الحسن الندوي، وانظر أيضاً (أضواء البيان) للشنقيطي (٣/٣٩٦ ــ ٤٠٠)، وانظر بحث (فصل الدين عن السياسة ضلالة مستوردة) للأستاذ يوسف العظم، وانظر « بيان الهدى من الضلال » للشيخ إبراهيم بن عبد العزيز السويح، ومما =

إلى أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم، فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري ؟ .. ثم يبين أن كثيراً من ظواهر التمدن الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية، ويضرب الأمثلة من نظم هذا التمدن في الحكم، وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات[١١٥]، كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الانحلال، وأن الفرق واسع بين وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوربيون لتأكيد روابط الأسرة)، ويختم ذلك متسائلاً : (إذا كانت هذه حالهم، فما الذي يطلب منا أن نستعيره منها ؟ .. وأي شيء منها يصلح لتحسين حالنا اليوم ؟) ثم يقول : (متى تقرر أن المدينة الإسلامية هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه، لا بما كانت في الحقيقة عليه، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن، وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح، فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا) اهـ[١١٦] .

= يجدر التنبيه إليه أن مصطلح « رجل الدين » مصطلح دخيل على الفهم الإسلامي الصحيح، بل كل مسلم ينبغي أن يكون رجل دين عليه واجبات تجاه دينه لابد من تأديتها حتى يستحق وصف المسلم .

(١١٥) هذه المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الرومانية وترجيح كفة الأخيرة تبين أن المعين الذي كان يستمد منه قاسم أمين وأضرابه هو كتابات (المتحررين) في أوربا الذين كانوا يحقرون الحضارة المسيحية، ويمجدون الحضارة اليونانية واللاتينية الوثنية السابقة على المسيحية، وما هذه المقارنة الغبية إلا صورة جديدة تدل على التخلف الفكري والتقليد الأعمى الذي كان يعاني منه ذلك المفتون بحضارة الغرب، الذي نلاحظ من كتاباته كم كان شامخ الأنف متغطرساً مع مواطنيه، متعالياً على أمته، وفي الوقت ذاته مهدور الكرامة مطأطأ الرأس ذليلاً أمام أعداء دينه وأمته، قد وقف حياته على أن يجذب بمناهجه السقيم أعناقنا نحن المسلمين وجباهنا ــ نحن الموحدين ــ لتسقر أمام أقدام أعدائنا اليهود والصليبيين خاشعة خاضعة .

(١١٦) « المرأة الجديدة » ص(١٨٣)، ويبدو أن الجذرية في كتابه الثاني هذا لم تكن رد فعل للهجوم القاسي من =

ثم يستطرد (عدو المرأة المسلمة) قائلاً : (نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها في كثير من الأمور الأخرى ..) ويقول : (.. والذي أراه أن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التدنى والتقهقر .. هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى هذا الحين ــ ونرجو أن لا يكون بعيداً ــ انجلت الحقيقة أمام عيوننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أن من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية ، خاضعة لسلطان العلم ، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها(١١٧) وكتابتها ومبانيها

= أوساط العلماء الأزهريين ، وإنما كان قاسم أمين قد أعد أصول الكتابين في ذهنه قبل نشرهما ، وخطط لإخراجهما بهذه الصورة ، وقاسم أمين نفسه كان يؤمن بطريقة غرس الأفكار بالتدريج ، فقد قال في الصفحات الأولى من « تحرير المرأة » : (إني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب ، لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال في شئونها لا يسهل تحقيقه ، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد في أثناء حركته الخفية ، وكل تغيير يحدث في أمة من الأمم ، وتبدو ثمراته في أحوالها ، فهو ليس بالأمر البسيط ، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة ، تحصل بالتدريج في نفس كل فرد ، شيئاً فشيئاً ، ثم تسرى من الأفراد إلى مجموع الأمة ، فيُحْدِثُ التغيير في حال ذلك المجموع ، نشأة أخرى للأمة) اهـ من « تحرير المرأة » ص(٢ ، ٣) . وهذا يوضح أن قاسماً كان يضمر في نفسه شيئاً لم يشأ أن يعلنه في هذا الكتاب ، حتى لا تسقط كل جهوده ، فأبرزه في كتابه الثاني « المرأة الجديدة » التي كانت ــ بالفعل ــ امرأة « جديدة » مغايرة تماماً لتلك التي رأيناها في كتابه الأول « تحرير المرأة » .

فالحاصل أن كل ما يمكن أن يكون تركه هجوم شيوخ الأزهر من أثر هو حدة الكلمات والعبارات ، لا جوهر الفكر ذاته ــ والله تعالى أعلم ــ انظر « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص(٦٥ ، ٧٨) .

(١١٧) من المعروف أن قاسم أمين كان يدعو إلى ثورة في لغة الأدب وخطته في ذلك تشبه ثورته الاجتماعية ، =

وطرقها، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل هذا هو الذي جعلنا نضرب الأمثال بالأوربين، ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوربية)اهـ[١١٨] .

بعض ردود فعل الكتاب :

موقف « مصطفى كامل » :

تصدى « مصطفى كامل » من جديد « لقاسم أمين »، وكتب في (اللواء) بتاريخ ١٩٠١/٢/٩م معلقاً على كتاب (المرأة الجديدة) : (أخرجه أخيراً قاسم أمين ليدعم به أمر كتابه الأول، ويفتح به آفاقاً جديدة لتحلل المسلمين من دينهم وأخلاقهم)اهـ .

وحكى « مصطفى كامل » كيف أن سلطان « ملديفى » لما بلغه خبر الكتاب، وسئل عن رأيه في هذه الاتجاهات قال : (أما تعليم النساء المسلمات فقد أصبح من المسائل الحيوية للإسلام والمسلمين، ولكنه لو مال عن طريق الشريعة الغراء إلى خطة مدنية الغرب الغبراء، كان معولاً لهدم أركان الإسلام، وفأساً لفتح القبور لأبنائه، ودَسِّهم فيها وهم أحياء، أما رفع الحجاب فلا أرضاه لنسائي وبلادي، وأما المرأة وحق طلاق زوجها فدعوة لا تصدر من معترف بقول الله في كتابه : ﴿ الرجال

= فننسلخ من لغة القرآن، ونكتب آدابنا بلهجاتنا العامية على نحو ما انسخلت اللغات الأوربية الحديثة من أمها اللاتينية، ونعبر في خطنا عن الحركات بحروف تدخل في بنية الكلمة على طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية ـــ (انظر « الأعمال الكاملة » ١٥٧/١ ـــ ١٥٨) ولا يخفى ما في هذا « التكتيك الخبيث » من خدمة عظيمة لأعداء الإسلام تشير بأصبع الاتهام من جديدة إلى « قاسم أمين » .

(١١٨) « المرأة الجديدة » ص(١٨٥ ـــ ١٨٦) .

قوامون على النساء ﴾النساء (٣٤)، فنسأل الله السلامة)اهـ[١١٩].

وأفسح « مصطفى كامل » لعلماء المسلمين المجال في جريدة اللواء ليتصدوا لهذه الدعوة الاستعمارية، وليبينوا حكم الإسلام فيها وفي أصحابها، (وكان من الكُتَّاب الذين نشرت لهم « اللواء » مقالات تعيب على قاسم أمين وذيوله خصومة الحجاب، وتجاوز ذلك إلى تحرر يسيء إلى حياة الأمة الأستاذ « محمود سلامة » الأديب المعروف)[١٢٠].

ومن البحوث التاريخية التي نشرها « اللواء » أيضاً ذلك البحث الذي وضعه قاضي قضاة مصر[١٢١] السيد عبد الله جمال الدين أفندي رحمه الله، ونشرته له « اللواء » في عدديها رقم (٤٥٦ ، ٤٥٧) بتاريخ (٢٥ ، ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣١٨هـ، أى في أواخر سنة ١٩٠٠م)، وقد استغرق هذا البحث من كل عدد الصفحة الأولى كاملة، وثلث الصفحة الثانية[١٢٢].

وبما أن هذه الحركة كانت قد نشأت في بيئة وطيدة الصلة بالاحتلال البريطاني، معادية في نفس الوقت لحاكم البلاد الرسمي (الخديوى)، فكان من الطبيعي أن يقف منها الخديوى موقف العداء .. أولاً : لمنافاتها للإسلام في وقت كان الحكام والأمراء يفاخرون بالحرص عليه، وثانياً : لصلتها بالاحتلال الذي يعمل على حشد القوى المناصرة له، لمناهضة الخديوى، والحد من سلطانه، وقد أبرز « مصطفى كامل » موقف الخديوى « عباس حلمي » من هذه الحركة في اللواء بتاريخ (٢٢ أبريل سنة

---

(١١٩) « الحركات النسائية في الشرق » ص(١٨) .

(١٢٠) انظر « تطور النهضة النسائية » ص(٥٨) .

(١٢١) كره بعض العلماء هذا اللقب لشبهه بلقب « شاهنشاه » أى ملك الأملاك المذموم في السنة الصحيحة، وذلك قوله ﷺ : (إن أخنع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) متفق عليه .

(١٢٢) وقد طبع حديثاً في كتيب بعنوان (حجاب المرأة العفة والأمانة والحياء) طبع مكتبة التراث الإسلامي (١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م) .

١٩٠١م) بعنوان : (رأى الجناب العالي في مسألة الحجاب) وقد جاء فيه ما نصه :

(يرى الجناب العالي حفظه الله في مسألة الحجاب وإطلاق حرية النساء، ما يراه الشرع الشريف ويأمر به، وقد عرف رأى جنابه في هذا الشأن بأمرين :

الأول : أنه أبى قبول كتاب (المرأة الجديدة) عندما ذهب « قاسم أمين » في الأيام الأخيرة إلى المعية السنية، والتمس تقديمه إلى سموه .

الثاني : أنه قبل كتاب (الاحتجاب) الذي رفعه إليه يوم الجمعة الماضي حضره الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله نقيب الأشراف برودس وقريب مؤلف الكتاب عبد الله جمال الدين أفندي رحمه الله، وتقبله حفظه الله بكل ارتياح وانشراح، وأعرب عن عظيم امتنانه من نشره حتى ينتفع به المسلمون، ويرشدهم إلى الحق والصواب) اهـ .

هذا ولم يقف الأمر بالخديوي حيال « قاسم أمين » عند هذا الحد، بل لقد أصدر أمراً بمنعه من دخول القصر في أي مناسبة، مع أنه مستشار[١٢٣] في الدولة، وذلك أنصع في الدلالة على استنكار الخديوي لهذه الحركة الأثيمة[١٢٤] .

---

(١٢٣) درس « قاسم أمين » الحقوق في فرنسا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥م، فتعين وكيلاً للنائب العمومي في محكمة مصر المختلطة، وما زال يرتقي حتى صار مستشاراً في الاستئناف إلى أن مات بالسكتة في ليلة ٢٣ أبريل ١٩٠٨م وهو في الثالثة والأربعين من عمره، وقد زعم الصحافي « مصطفى أمين » أنه لم يمت موتاً طبيعياً ولكنه انتحر، وذكر سبب ذلك في مقالة نشرت بجريدة المساء (الخميس ٤/٨/١٩٨٣) بعنوان « هل انتحر محرر المرأة بسبب امرأة » .

(١٢٤) ومن المواقف (الملكية) النادرة ما روته وصيفة « الملكة نازلي » عن شدة معاملة « الملك فؤاد » لها، قالت : [وفي السبع عشرة سنة التي عاشها الملك مع الملكة لم يسمح لها بالسفر إلى أوربا سوى مرة واحدة عندما أجمع الأطباء على ضرورة سفرها إلى إحدى مدن المياه المعدنية بفرنسا لتعالج فيها، وذلك عام ١٩٢٧م وكان الملك مسافراً لبعض دول أوربا زيارة رسمية، ورفض أن يصحبها معه في هذه الزيارات، واشترط أن تبقى في أوربا محجبة، ورفض أن تكون معه على نفس الباخرة، وأمر بأن تسافر باليخت (المحروسة) ليتفادى سفرها بالبواخر العادية حتى لا تختلط بالرجال، وأمر الملك أن يكون هناك (ديدبان) طوال =

الليل في الممشى أمام الجناح الخاص بالملكة في اليخت ، وعندما بدأت الرحلة ، وخيم الظلام في الليلة الأولى رأت الملكة الديدبان ، فغضبت وهاجت وماجت وأمرت قبطان اليخت المحروسة بسحب الديدبان فوراً ، وقال لها القبطان في احترام : « إنني أنفذ أوامر جلالة الملك شخصياً » ، وقالت الملكة : « ولكن وجوده هنا يضايقني ، وصوت حذائه يزعجني ويقلق نومي » ، ولم يستطع القبطان أن يقول إن صوت الحذاء لا يسمع مع وجود (البساط) المفروش على الأرض ، بل قال للملكة : إذا كان صوت حذاء الديدبان يزعج جلالتك فإنني سآمره أن يخلع حذاءه ، وفعلاً كان الجنود الذين يتناوبون الحراسة ليلاً أمام جناح الملكة يخلعون أحذيتهم ، ويقفون حفاة تنفيذاً لأمر الملك من جهة ، وإرضاءً للملكة من جهة أخرى .

وحدث في تلك الأيام أن نشرت مجلة (روز اليوسف) صورة للملكة نازلي ووجهها مكشوف ، فقامت قيامة الملك فؤاد ، وطلب من « توفيق نسيم » باشا رئيس الديوان الملكي أن يطلب من « عبد الخالق ثروت » باشا رئيس الوزراء إغلاق مجلة روز اليوسف بتهمة (العيب في الذات الملكية) .. وحقق مدير المطبوعات مع « روز اليوسف » ، فقالت : « إن الصورة منقولة عن جريدة فرنسية وزعت في مصر » ، واكتفى مدير المطبوعات بتوجيه توبيخ شديد اللهجة إلى « روز اليوسف » .

وكان الملك « فؤاد » يحرص أن لا تبدو الملكة نازلي سافرة أمام رجل ، حتى أنها كانت لا تستطيع أن تتنزه في حدائق القصر الملكي إلا إذا حجبت نصف وجهها ، وبعدما يتحقق بوليس القصر من عدم وجود رجل في المنطقة التي ستتنزه فيها الملكة ، وفي الوقت الذي ستتنزه فيه الملكة ، وفي الوقت نفسه يصدر الأمر إلى جنود الحرس الملكي الذين يقفون فوق جدران القصر أن يديروا ظهورهم إلى حديقة القصر طول مدة سير الملكة في الحديقة !

وحدث أن قرر الملك (أمان الله خان) ملك أفغانستان أن يزور مصر وهو في طريقه إلى أوربا ، فصحب الملكة (ثريا) زوجته ، ورحب الملك فؤاد بملك أفغانستان ، ثم سمع أن الملك (أمان الله) دعا نساء أفغانستان إلى نزع الحجاب اقتداء بالغازي (كمال أتاتورك) الذي ألغى الحجاب في تركيا ، وجاءت البرقيات تقول إن الملكة (ثريا) سترافق الملك « سافرة » في رحلته ، وعندئذ ألغى الملك فؤاد استضافته ملك أفغانستان في قصر عابدين ، بحجة أن التقاليد تحول دون اشتراك الملكة ثريا في الزيارة الرسمية ، وعُرف أن الملك فؤاد لا يريد أن تقيم ثريا في قصر عابدين حتى لا تُسمِّمَ أفكار الملكة نازلي ، ووافق الملك (أمان الله) على أن تكون إقامة ثريا في مصر إقامة غير رسمية ، فلا تشترك في الحفلات والاستقبالات التي يُدْعَى إليها ، ولم يكتف الملك فؤاد بذلك ، بل أبلغ الملك (أمان الله) أنه يرجو ألا تظهر زوجته سافرة أثناء إقامتها في مصر مراعاةً لتقاليدها ، وخضعت ثريا لرغبة الملك ، وأصدر الملك فؤاد أمره إلى وزارة الداخلية بعدم محاولة تصوير ملكة أفغانستان ، وفعلاً لم تظهر صورة واحدة للملكة ثريا في الصحف المصرية طوال مدة إقامتها .

هل رجع « قاسم أمين » عن آرائه ؟

زعم بعض الباحثين أن قاسم أمين (عدل عن رأيه في عام ١٩٠٦م، بعد أن تبين له أنه ضل الطريق، وذلك ضمن حديث له إلى صحيفة « الظاهر » التي كان يصدرها « محمد أبو شادي » المحامي، أعلن فيه رجوعه عن رأيه، كما أعلن فيه أنه كان مخطئاً في « توقيت » الدعوة إلى تحرير المرأة)(١٢٥) .

وقد استدل من ذهب إلى ذلك، بحديثه المذكور آنفاً في صحيفة « الظاهر »، وفي الاستدلال بهذا الحديث نظر، لأن عبارته لم تكن صريحة في توبته عن ضلاله بالكلية، ولكنه ادَّعى أن خطأه، كان فقط في « توقيت » الدعوة إلى تحرير المرأة، وليس في مضمون الدعوة ذاتها، وإليك نص عبارته في ذلك :

قال « قاسم أمين » : (لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفرنج في تحرير نسائهم، وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب، وإلى إشراك النساء في كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم .. ولكني أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس، فلقد تتبعت خطوات النساء في

= وعندما انتهت الزيارة، وصعدت ملكة أفغانستان إلى الباخرة الإيطالية التي أقلتها إلى أوربا أسرعت، ونزعت الحجاب بحركة عصبية، وقالت للصحافيين : (أظن أننا لم نعد مقيدين بأوامر الملك فؤاد هنا) اهـ من مقالات بعنوان : (من عشرة لعشرين) للصحافي مصطفى أمين ــ أخبار اليوم ٩ يناير ١٩٨٢م .

(١٢٥) (الأخوات المسلمات) ص (٢٥٢)، ولعل مما يضعف احتمال رجوعه عن مذهبه ما قالته « هدى شعراوي » في حفل تكريم ذكرى رحيل « قاسم أمين » العشرين ــ والذي حضره : صفية زغلول، وطه حسين، ولطفي السيد، وواصف غالي، وتوفيق دوس، ومصطفى عبد الرزاق : (سادتي وسيداتي : اسمحوا لي أن أبدأ كلمتي بآخر كلمة نطق بها المرحوم قاسم أمين في حفلة نادي المدارس العليا وهو يحيى الطلبة الرومانيين ليلة وفاته إذ قال : « كم أكون سعيداً في اليوم الذي أرى فيه سيداتنا يزين مجالسنا كما تزين طاقات الزهور قاعات الجلوس » هذه هي آخر جملة نطق بها المرحوم قاسم قبل أن يلبي دعوة ربه ببرهة وجيزة، وهي كما ترون تتضمن أمنية غالية لم يمهله الموت حتى يشاهد تحقيقها) اهـ من (حوء) العدد (١٢٤٩) ٣٠ أغسطس ١٩٨٠م ص (١٤ ــ ١٥) .

كثير من أحياء العاصمة والإسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن، وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات، فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف، ما حمدت الله على ما خذل من دعوتي، واستنفر الناس إلى معارضتي ..، رأيتهم ما مرت بهم امرأة أو فتاة إلا تطاولوا إليها بألسنة البذاء، ثم ما وجدت زحاماً في طريق فمرت به امرأة إلا تناولتها الأيدي والألسنة جميعاً .. إنني أرى أن الوقت ليس مناسباً للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذي قصدته من قبل)(١٢٦) .

وقد كان نشر هذا الكلام قبل موته بعامٍ ونصف، فلعله رأى ــ بعد أن تغيرت الظروف بزوال (كرومر) وانطفاء نفوذ (نازلي فاضل) ربيبته ــ أن يتخفف من تبعه هذه الدعوة المدمرة، بل ربما كان لبعض التجارب أثرها في نفسه، فمما يُروي (أن صديقاً عزيزاً « هو المؤرخ الإسلامي رفيق العظم » زاره ذات مرة، فلما فتح له الباب قال : « جئت هذه المرأة من أجل التحدث مع زوجكَ في بعض المسائل الاجتماعية ! »، فدُهش « قاسم أمين »، كيف يطلب مقابلة زوجته، ومحادثتها ؟ فقال له صديقه : « ألست تدعو إلى ذلك ؟ إذن لماذا لا تقبل التجربة مع نفسك ؟ » فأطرق « قاسم أمين » صامتاً)(١٢٧)، (كلَّمته زوجة « قاسم » من وراء ستار، وأفهمته أن قاسماً لم يدع إلى السفور، ولا إلى الخلوة بأجنبي)(١٢٨) .

---

(١٢٦) نقلا عن كتاب (رجال اختلف فيهم الرأى) للأستاذ أنور الجندي ص(٢٩) طبع دار الأنصار .

(١٢٧) عن مجلة (الاعتصام) عدد رمضان سنة ١٣٩٩هـ .

(١٢٨) « قاسم أمين » د . « ماهر حسن فهمي » ص (١٥٩)،

= ومن الجدير بالذكر أن زوجة (قاسم أمين) كانت محجبة حجاباً كاملاً، وقد ذكرت في بعض تصريحاتها بعد وفاته :

(أنه ــ أى قاسم ــ لم يرغمها على السفور عندما كان ينادي إليه)، وتقول : (إنها ظلت ترتدي البرقع والحبرة)، وإن قاسماً (كان يكتفي بالمناداة بفكرته، ولكنه لم يطبقها في أسرته إلا على النشء الجديد، أعنى على بناته)، ثم تحاول تبرئة قاسم من وزر الفساد الذي ترتب على دعوته، فتقول : (إن بنات الجيل الحالي وشبابه قد أخطأوا فهم هذه الدعوة، وتجاوزوا مداها، فالمظهر الذي تظهر به فتيات هذا =

موت « قاسم أمين » :

(ومات « قاسم أمين » ليلة الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٠٨م، فأوحى الإنكليز إلى شيعته بإقامة ما يسمى « حفل تأبين » له، فأقاموا هذا الحفل، وأشادوا فيه بدعوته إلى السفور، فقابل رجال الحزب الوطني هذه الحركة بإقامة احتفال كبير للدعوة إلى الحجاب، ولإبراز أصابع الإنكليز في فتنة السفور)[١٢٩].

من يحمل اللواء ؟

وبموت « قاسم أمين » لم تهدأ هذه الدعوة إلى (تدمير) المرأة إلا قليلاً، وكيف يهدأ للإنكليز بال والخطة لم تصل بعدُ إلى أهدافها ؟

وإن مات « قاسم أمين » فهناك على الساحة السياسية من يستنأنف الدور، ويحمل اللواء، هناك « حزب الأمة » وزعاماته المعروفة بعمالتها للإنكليز من أمثال : (أحمد فتحى زغلول)[١٣٠] عضو محكمة دنشواى، والهلباوى جلادها

= العصر ليس سفوراً، بل بهرجة فظيعة لم يكن يخطر على بال قاسم أن ينادي بها أو يدعو إليها، وإنما كان قاسم ينادي بالسفور الشرعي (!) الذي لا يزيد عن إظهار الوجه واليدين والقدمين، ولا يتجاوزه إلى إظهار العورات، وإلى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل الآن، وإني أعتقد أن قاسم بك لو كان حياً، لما رضي عن هذه الحال، بل لانبرى إلى محاربتها)اهـ، وانظر « قاسم أمين » لأحمد خاكى ص (١٠٦ ــ ١٠٧).

(١٢٩) (الحركات النسائية في الشرق) ص (١٩).

(١٣٠) أحمد فتحي زغلول شقيق سعد زغلول، اشترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواي، إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة، [وهي التي أصدر بطرس « باشا » غالي وزير الحقانية بالنيابة قراراً بتشكيلها لمحاكمة المتهمين برياسته هو نفسه ــ أى بطرس ــ، وعضوية كل من (المستر) هيتر و (المستر) بوند والقائم مقام (لادلو)، وأحمد فتحي (بك) زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية] اهـ من (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) لعبد الرحمن الرافعي ص (٢٠٣)، وفيه أيضاً أن (أحمد زغلول هو الذي كتب الحكم بقلمه، ورقي بعد الحكم وكيلاً لوزارة الحقانية، وسماه مصطفى كامل قاضي دانشوى) اهـ ص (٤١٩) ــ وهو المقصود بقول شوقي في « وداع كرومر » :

أم من صيانتِك القضاءَ بِمصرَ أن   تأتي بقاضى دنشواىَ وكيلاً ؟

وسفاحها ، وهناك وكلاء الغرب المنضوون تحت لواء هذا الحزب من أمثال (لطفي السيد) الذي حمل على عاتقه الدعوة إلى خروج النساء باسم التحرير ، وها هو ذا (أستاذ الجيل) أو (منشىء الوطنية المصرية) على حد تعبير « سلامة موسى » يتحدى المسلمين ، ويدخل الفتيات طالباتٍ في الجامعة مختلطات بالطلاب ، سافرات الوجوه ولأول مرة في تاريخ الجامعة المصرية(١٣١) ، وظل (أستاذ التضليل) يروج لحركة تحرير المرأة على صفحات (الجريدة) لسان حزب الأمة(١٣٢) .

---

(١٣١) وكان عضده ونصيره في تلك الخطوة (طه حسين) و (كامل مرسى) من « المرأة المصرية » لدرية شفيق ص (١٥٣ ، ٢٦٧) ، أما تفاصيل ذلك : فقد حكاها (طه حسين) في الاحتفال بتكريم أولى خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية في فبراير ١٩٣٢م حيث قال في كلمته : (أظن أن موقفي الآن — ولست من الرجال الرسميين — يسمح لي بأن أكشف لحضراتكم عن مؤامرة خطيرة جداً حدثت منذ أعوام ، وكان قوامها جماعة من الجامعيين ، فقد ائتمر الجامعيون ، وقرروا فيما بينهم أن يخدعوا الحكومة ، وأن يختلسوا منها حقاً اختلاساً لا ينبئونها به ولا يشاورونها فيه ، وهو الإذن للفتيات بالتعليم العالي في الجامعة المصرية ، وأؤكد لكم أيها السادة أنه لولا هذه المؤامرة التي اشترك فيها الجامعيون ، وبنوع خاص أحمد لطفي السيد باشا وعلى إبراهيم باشا وهذا الذي يتحدث إليكم ، لولا هذه المؤامرة التي دبرناها سراً في غرفة محكمة الإغلاق لما أتيح لنا ولا للاتحاد النسائيّ أن أقدم إليكم الآن محامية مصرية وأديبات مصريات ، اتفق هؤلاء الثلاثة فيما بينهم أن يضعوا وزارة المعارف أمام الأمر الواقع ، وكان القانون الأساسي في الجامعة يبيح دخول المصريين ، وهو وإن كان لفظاً مذكراً ينطبق على المصريين والمصريات ، وعلى ذلك ائتمرنا على أن تقبل الفتيات ، فقبلناهن ولم نحدث أحداً بذلك ، حتى إذا تم الأمر وأصبح لهن حق مكتسب في الجامعة ، علمت الوزارة أن الفتيات دخلن الجامعة) اهـ ص (٢٣ — ٢٤)من (حواء) العدد ١٢٥٥ / ١١ أكتوبر ١٩٨٠م .

(١٣٢) ومن المعروف أنه كان من الداعين إلى « إصلاح الخط العربي » سنة ١٨٩٩ وذلك بالدلالة بالحرف على الحركات فتكتب سعدٌ بالرفع هكذا (ساعدون) ، وبالنصب (ساعدان) والجر (ساعدين) ، وبفك الإدغام فتكتب محمد هكذا (موحاممادون) في الرفع و (موحاممادان) في النصب و (موحامّمدين) في الجر ، وهو يوافق في ذلك القاضي الإنكليزي (ولمور) ، « والأب » (أنستاس) في خططهما الخبيثة للقضاء على لغة القرآن المجيد ومحو الشخصية المسلمة من الوجود .

[وقد كان (لطفي السيد) خصماً للعروبة والوحدة الإسلامية ، وكان يدعو إلى قصر التعليم على أبناء الأعيان ، وكان يدعو إلى اللهجة العامية على وفق ما دعا إليه المستشرقون والمبشرون مثل (مولار ، =

صدور مجلة « السفور » :

ولما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت الفرصة سانحة لإخفات صوت الإسلاميين، وتشريد دعاتهم، وكتم أنفاسهم ــ اعتقلت السلطات البريطانية رجال الحزب الوطني، وانتهز أنصار الحركة النسائية الفرصة، فأصدروا مجلتهم (السفور)

= ويلكوكس) رافعاً شعار « تمصير العربية بإحياء العامية »، وكان يقاوم التضامن العربي الإسلامي، فقد عارض مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الغزو الإيطالي عام ١٩١١، ودعا إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطالية « التركية » .

ومن مواقفه الشهيرة أنه مجَّد اللورد كرومر، ووصفه بأنه (من أعظم عظماء الرجال، ويندر أن نجد في تاريخ عصرنا ندًّا له يضارعه في عظائم الأعمال)، ونشر عنه هذا الكلام في نفس اليوم الذي ألقى فيه كرومر خطاب الوداع، فسبَّ المصريين جميعاً .

وقد رسم (أستاذ الجيل) منهجاً للحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية في مصر يقوم على التبعية العامة للنفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني والفكر الغربي تحت اسم عبارة خادعة هي (مصر للمصريين) .

وقد أنشأ ذلك (الأستاذ) حزب الأمة الذي كان « صناعة بريطانية » بإجماع الآراء، وكان هدف هذا الحزب تقنين الاستعمار، والعمل على شرعية الاحتلال، والدعوة إلى مهادنة الغاصب، وتقبل ما يسمح به بدون مطالبته بشيء ! ..

أما موقفه من الدين فيلخصه قوله : (لست ممن يتشبثون بوجوب تعلم دين بعينه، أو قاعدة أخلاقية بعينها، ولكني أقول بأن التعليم العام يجب أن يكون له مبدأ من المبادىء يتمشى عليه المتعلم من صغره إلى كبره، هذا المبدأ هو مبدأ الخير والشر)] انتهى ملخصاً من كتاب (رجال اختلف فيهم الرأي) للأستاذ أنور الجندي ص(٤ ــ ١١)، وقال د. حسين فوزي : (والفكرة في عقيدة لطفي السيد هي الحرية، الحرية في كل صورها ومعانيها، والعقيدة هي القومية والديمقراطية والتمدين) اهـ من « أحمد لطفي السيد » ص(٢٨٧) .

وقد كان الرباط وثيقاً جداً بين (طه حسين) و (لطفي السيد)، وآية ذلك :

ــ أن أول رسالة علمية في الجامعة مُنِحَتْ لطه حسين .

ــ وحينما تحولت الجامعة الأهلية إلى حكومية اشترط لطفي السيد أن يكون طه حسين أستاذاً فيها .

ــ وحينما أُقِيل طه حسين لعدوانه على الإسلام استقال لطفي السيد من الجامعة تضامناً معه .

(انظر « لطفي السيد » للدكتور حسين فوزي ص(٢٧٠ ــ ٢٧٨) .

باسم (عبد الحميد حمدي)، وقد أخذت على عاتقها نشر الدعوة ضد الحجاب، وضد الآداب الإسلامية، وممن كتب فيها داعياً إلى السفور مصطفى عبد الرازق، وعلى عبد الرازق[١٣٣]، وطه السباعي، وصاحب « المجلة » وغيرهم[١٣٤].

وإلى قيام ثورة ١٩١٩ كانت هذه الدعوة الآثمة محصورة في أضيق الحدود، حتى إن المتظاهرات اللاتي أغراهن دعاة التحرير بالخروج في ذلك الحين كن محجباتٍ يرتدين البراقع البيضاء، ولا يخالطن الرجال[١٣٥].

---

(١٣٣) « علي عبد الرازق » صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) صدر كتابه سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) عقب إلغاء الكماليين للخلافة الإسلامية في تركيا ليسوغ صنيعهم، زاعماً أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون، وليس في أصول الشريعة الإسلامية ما يلزم به، والكتاب مليء بالتهجم الظالم والمتهور على الخلافة والخلفاء، ولم يستثن من ذلك الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وعلى رأسهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضي الله عنه، وزعم عدو الله أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك، لا في سبيل الدين، (حاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم)، وأنكر أن القضاء وظيفة شرعية، ووصف حكومة الخلفاء الراشدين بأنها كانت (لا دينية) وهذه جرأة (لا دينية) من المؤلف، وقد ذهب قبل تأليفه إلى بريطانيا، وأقام فيها عامين، ولقرائن عديدة ذهب فضيلة الشيخ (محمد بخيت) رحمه الله إلى أن الكتاب ليس من تأليف « على عبد الرازق »، ورجح الدكتور « ضياء الدين الريس » بأن مؤلف الكتاب الحقيقي هو مستشرق إنجليزي يهودي الأصل وهو (مرجليوث)، ومن هنا أطلق عليه الأستاذ أنور الجندي (حاشية على عبد الرازق على بحث مرجليوث) ! وقد صدرت كتب عديدة ترد على الكتاب، وتفضح مؤامراته، وحوكم مؤلف الكتاب أمام هيئة كبار العلماء بالأزهر، فأصدرت حكمها في ٢٢ من المحرم سنة ١٣٤٤هـ الموافق ١٢ أغسطس ١٩٢٥م، وهو يقضي (بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية، ومؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » من زمرة العلماء، ومع أن حركة اليقظة الإسلامية واجهت الكتاب المنحول، وفندت أباطيله، إلا أن قوى التغريب ما تزال تعيد نشره وطبعه مع مقدمات ضافية يكتبها المضللون الشعوبيون ليخدعوا المسلمين بأسمائهم وألقابهم ــ انظر (الاتجاهات الوطنية) (٢/ ٨٥ ــ ٩٥) ، (رجال اختلف فيهم الرأى) ص (٦١ ــ ٧٢) .

(١٣٤) (تطور النهضة النسائية) ص(١٤) .

(١٣٥) من (خمسون عاماً على ثورة ١٩١٩) لأحمد عزت عبد الكريم، أصدرته مؤسسة الأهرام مركز الوثائق =

الطفــرة :

وقد كان ثورة (١٩) أكبر طور طفر بحركة « تحرير المرأة »، وقد تمثل ذلك في مشاركة المرأة في ثورة ١٩١٩، ومؤازرة « سعد زغلول » للحركة النسائية، وكانت المشاركة الفعلية للمرأة بمظاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٩١٩، وكانت هذه المشاركة في ذلك اليوم بمثابة جواز المرور الذي تجاوزت به المرأة الحائط القديم الذي قبعت طويلاً خلفه، لوم تعد إليه أبداً، بعد أن وضعت قدمها موضع قدم الرجل، فعندما تشكل الوفد المصري من الرجال، همت المرأة فشكلت لجنة الوفد من السيدات اللاتي اجتمعن برئاسة « هدى شعراوي » في الكنيسة المرقصية الكبرى يوم (٨ يناير سنة ١٩٢٠)، ومنذ ذلك التاريخ انتقل التنظيم النسائي إلى مرحلة العمل المنظم، على أساس أنه هيئة مستقلة حرة معترف بها، لها الحق في أن تشارك في مجريات الأحداث التي تمر بها البلاد.

وظلت الصحافة في هذه المرحلة، تؤازر المرأة، خاصة التي يحررها صحافيون سفوريون ممن كانوا يؤازرونها من قبل، وممن انضم إليهم من أمثال الدكتور « محمد حسين هيكل » صاحب جريدة « السياسة »، وبعض كتاب مجلة الهلال وغيرهم، ورسمت الصحافة صورة المرأة المثالية، التي يجب أن تتمثلها المرأة المصرية، وهي نفسها صورة المرأة الأوربية في ذلك الوقت، يقول أحد الكتاب : « المرأة الأوربية عندها واجبان مقدسان : بيتها ووطنها، وبين الواجبين تخص بساعة نفسها، فتحضر حفل موسيقى، أو تدعو أصحابها لليلة راقصة، ولا تنسى أن تقف أمام المرآة لتزين حالها، فتتذكر دائماً أنها امرأة، إنها في نظري مثال المرأة الأعلى، ويحسن بالمرأة الشرقية أن

= والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة (ص ١٩٣ ـــ ١٩٧)، وقد ضُمِّنَ الكتاب صور المتظاهرات في وسط الطريق وهن يرتدين النقاب الأبيض، والجلباب الأسود، في حين وقف الرجال على جنبات الطريق ينظرون إليهن وقد مضين قدماً.

تقتبس عنها كل شيء »[١٣٦] .

وربط كتاب هذه المرحلة صراحة بين تحرير المرأة وفكرة « المصرية » ونبْذ فكرة « الإسلامية »، يقول « محمود عزمي » ـــ وكان من أبرز كُتَّاب تلك المرحلة : (تأثرت بكتب « قاسم أمين » تأثراً عجيباً، جعلني أمقت الحجاب مقتاً شديداً، يرجع إلى اعتبار خاص، هو اعتباره من أصل غير مصري، ودخوله إلى العادات المصرية، عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب، فكان حِنْقى على أولئك الأجانب الفاتحين الإسلاميين يزيد)اهـ[١٣٧] .

جريمة الزعيم :

(صحبت « صفية زغلول » زوجها « سعد زغلول » في باريس لحضور مؤتمر الصلح سنة ١٩٢٠ لعرض القضية المصرية، وقد مكثت صفية ترتدي الحجاب إلى أن عادت مع « سعد زغلول » إلى مصر بعد عودته من منفاه، وعلى ظهر الباخرة التي نقلتهما إلى الإسكندرية، وجد « سعد » البحر وقد امتلأ بألوف المخدوعين يستقبلونه بالقوارب، وقال سعد لصفية : « ارفعي الحجاب »، وتدخل « على الشمسى »، و « واصف بطرس » ! ـــ من أعضاء الوفد ـــ وعارضا في ذلك، فقال سعد زغلول : « المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع، ومن حقها أن ترفع الحجاب اليوم »، ورفعت « صفية زغلول » الحجاب[١٣٨]، ثم وقفت إحدى صنائع

---

(١٣٦) انظر : (المؤامرة على المرأة المسلمة) ص (١٤).

(١٣٧) « الهلال » العدد الماسي ـــ ص (١٣٢).

(١٣٨) ويبدو أن الأمر استقر أخيراً على أن لا تخلع « صفية » الحجاب نزولاً على رغبة (واصف بطرس غالي) !!، فقد حكت « هدى شعراوي » في مذكراتها قصة عودتها على نفس الباخرة التي عاد عليها « سعد »، فقالت :

(وقد بدأ ـــ أى سعد ـــ يهنئنى على توفيقي في الوصول إلى رفع الحجاب، وكيفية عمل الحجاب الشرعي (!) الذي أرتديه، وقال : « إنه قد سُرَّ عندما رأى صورتي بهذا الزى الجديد في منفاه »، ثم =

الاستعمار تخطب في القاهرة في احتفال الشعب المخدوع بقدوم « الزعيم »، وطلب منها رفع الحجاب، وعندئذ رفعت الحاضرات الحجاب) اهـ[١٣٩].

وجاء في جريدة « الجمهورية » الصادرة في (١٩٧٨/٤/٢٠) في الذكرى السبعين لموت « قاسم أمين » تحت عنوان : « تحليل شخصية قاسم أمين » : (ولما تولى « سعد زغلول » زعامة الشعب في عام ١٩١٩ اشترط على السيدات اللواتي يحضرن لسماع خُطَبه أن يزحن النقاب عما سمح الله به من وجوههن، وكانت هذه أول مرحلة عملية للسفور)اهـ.

وفي رواية : (نفت بريطانيا « صديقها » سعد زغلول وجماعته إلى جزيرة « سيسل » فترة، ثم أعادته إلى مصر لتوليه رئاسة الوزارة، وتوقع معه معاهدة، فيكون احتلال بريطانيا لمصر شيئاً رسمياً متفقاً عليه !

هيىء الجو في الإسكندرية لاستقبال سعد، وأُعِدَّ سرادق كبير للرجال، وآخر للنساء المحجبات، وأقيمت الزينات في كل مكان، ونزل « سعد » من الباخرة، وعلى استقبال حافل وهتافات، أخذ طريقه إلى سرادق النساء ــ دون سرادق الرجال ــ فلما دخل على النساء المحجبات، استقبلته « هدى شعراوي » بحجابها ..

فمدَّ يده ــ يا ويله ــ فنزع الحجاب عن وجهها، تبعاً لخطة معينة، وهو يضحك ..

فَصَفَّقَتْ هدى ...

= طلب من السيدة حرمه أن تُقَلِّدَني، فوعدت بذلك ..

صعِدت إلى ظهر الباخرة للنزول، وإذا بصفية هانم تقابلني ببرقعها وملاءتها، فقلت لها : « أين وعدك لسعد باشا بارتداء الإزار الشرعي ؟ »، فقالت : « أنا ليس لي زوج واحد .. واصف باشا غالي استحسن ألا أغير زيي حتى لا أحدث تأثيراً سيئاً في المستقبلين »، فعجبت من ذلك، وصافحتها، ونزلت إلى اللنش الذي كان في انتظاري » اهـ، من (حواء) العدد (١٢٣٧) ٧ يونيو ١٩٨٠م.

(١٣٩) (الأخوات المسلمات) ص (٢٥٥).

وصفقت النساء لهذا الهتك المشين ... ونزعن الحجاب.

ومن ذلك اليوم أسفرت المرأة المصرية، استجابة لـ (رجل الوطنية) سعد، وأصبح الحجاب نشازاً في حياة المسلمة المصرية ..

لقد فعل « سعد » بيده ما دعا إليه اليهودي القديم بلسانه، فكلفَّه دمه[١٤٠]، أمّا سعد ... ؟!)[١٤١].

ويستنكر الشيخ « مصطفى صبري » ـــ رحمه الله ـــ هذه الجريمة التاريخية البشعة قائلاً : (وكأني بعلماء الدين سكتوا عند وقوع تلك الحادثة احتراماً لسعد، أو انتقده عليه قليل منهم من غير تصريح باسمه كما هو المعتاد عند علماء مصر في النقد، ولكن النهى عن المنكر ليس بجهاد مع الهواء، وإن الحق وخاطر الإسلام أكبر من سعد وألف سعد، وإني تذكرت هنا سعداً الصحابيَّ رضي الله عنه، وقول النبي ﷺ فيه[١٤٢] : أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني »)[١٤٣]اهـ .

---

(١٤٠) لعله يشير إلى ما رواه ابن هشام عن محمد بن إسحاق (وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة، عن أبي عون، قال : كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ؛ فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضبت المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع) اهـ من « السيرة النبوية » لابن هشام مع « الروض الأنف » للسهيلي (١٣٧/٣) . وإسناده مرسل معلّق، انظر : (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة) للشيخ ناصر الدين الألباني ص (٢٦ ـــ ٢٧).

(١٤١) « المرأة المسلمة » للشيخ وهبي سليمان غاوجى الألبانى ص (١٨٨).

(١٤٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال سعد بن عُبادة رضى الله عنه : « لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح » فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال : « تعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير منى، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » الحديث « جامع الأصول ـــ في أحاديث الرسول ﷺ » بتحقيق الأرناؤوط (٤٣٢/٨).

(١٤٣) « قولى في المرأة » للشيخ مصطفى صبري رحمه الله (ص ٧٤ ـــ ٧٥).

« سعد زغلول »

المنفذ الفعلي لأفكار « قاسم أمين » :

(في ثورة سنة ١٩١٩ استطاع المصريون بقيادة « سعد زغلول » أن يحققوا الاستقلال عن كل من تركيا وإنجلترا، وتحقق ــ في الوقت نفسه ــ بتعضيد من « سعد زغلول » ومعاونته استقلال المرأة وتحررها العملي، وتحققت بذلك نبوءة « قاسم أمين » الذي كان يرى أن آراءه في المرأة لن تأخذ شكلها العملي إلا على يد « سعد زغلول »، ومن ثم فقد أهداه كتاب « المرأة الجديدة » الذي يمثل الثورة الجذرية الفعلية للمرأة المصرية.

والذي لا يعرفه الكثيرون أن « سعد زغلول » كان لا يقل تحمساً لتحرير المرأة عن شيخه، الشيخ « محمد عبده »، وصديقه « قاسم أمين »، إن لم يكن أكثر حماساً وفاعلية منهما، فهو الرجل الذي قدر له أن يقرر تاريخ مصر طوال العقد الثالث من هذا القرن.

وكان « سعد زغلول » من أبناء الأزهر الذين تخرجوا من الأزهر الشريف ودرسوا الحقوق، واحترفوا المحاماة، واتصل برجال تركيا الفتاة، الذين قضوا على الخلافة الإسلامية في تركيا، وكانت الأميرة « نازلي فاضل » تؤيد أفكارهم، فالتقت فكرياً بسعد زغلول وعهدت إليه بالإشراف على ممتلكاتها، وعن طريق منتداها بدأ نجمه يبزغ، في ظل نجم الأميرة، ونجم الشيخ « محمد عبده »، ثم سطع نجمه عندما مثل أول أدواره السياسة بوصفه صهر « مصطفى فهمي » باشا رئيس الوزراء المصري، وأحد المقربين إلى اللورد « كرومر » سنة ١٩٠٧، ثم عندما أسس حزب الأمة، الذي بارك اللورد كرومر تكوينه راجياً أن يُحِدَّ النزعة الإسلامية ــ بقيادة « مصطفى كامل » ــ ثم أسند اللورد لسعد زغلول نظارة المعارف، مكافأة له على خدماته، قبل

أن تتغير الاتجاهات السياسية في مصر في نهاية الحرب العالمية الأولى ، وثورة سنة ١٩١٩)[١٤٤] .

(وفي هذه الفترة التي قدر لسعد زغلول أن يقرر فيها تاريخ مصر ، قطعت مسألة تحرير المرأة شوطاً ، لم يكن ليتحقق لها بدونه ، ومِنْ ثَمَّ فقد بَزَّ دورُه الشيخ « محمد عبده » ، « وقاسم أمين » معاً ، وذلك لأن « سعد زغلول » ـــ كما يقول الشيخ « محمد رشيد رضا » ـــ في مجلة المنار « ٧١١/٢٨ ، ٧١٢ » : (دخل في أطوار التفرنج في معيشته ، وأفكاره الاجتماعية ، وغلبت نزعة « المصرية » عنده على فكر « الجامعة الإسلامية » ، ولم يعد يذهب إلى المساجد « وهو خريج الأزهر الشريف » إلا في مناسبات الاحتفالات الرسمية في عهد وزارته ، وبعض صلوات الجمعة في زمن زعامته ، وأنكر عليه أهل الدين أموراً منها عمله في تجرئة النساء على السفور المتجاوز للحد الشرعي ، حتى لقد بدا للعيان أنه لو كان الأمر بيد « سعد زغلول » ، لحول مصر إلى تركيا كمالية أخرى ، ولكن حال دون ذلك نزوع المصريين الفطري إلى التدين ، والتمسك بعرى الدين ، وخوف سعد ـــ إذا تمادى في تحدى مشاعر الناس الدينية ـــ من أن يفقد شعبيته ، واحترام البسطاء له)[١٤٥] اهـ .

(١٤٤) « تاريخ الشعوب الإسلامية » ـــ كارل بروكلمان ـــ ص(٧٢٤) ـــ ترجمة نبيه أمين فارس ـــ ومنير البعلبكي ـــ بيروت سنة (١٩٦٨م) .

(١٤٥) انظر « المؤامرة على المرأة المسلمة » ـــ د. السيد أحمد فرج / ص(٢٠ ـــ ٢١) .

« سعد زغلول » :

أول وزير مصري في ظل الاحتلال :

لقد بدأ (الزعيم) حياته السياسية صديقاً للإنكليز ، وختمها كذلك صديقاً للإنكليز[١٤٦] ، وبدأها بمصاهرة أشهر صديق للإنكليز عرفته مصر في تاريخ الاحتلال الإنكليزي من أوله إلى آخره ، وهو « مصطفى فهمي » باشا أول رئيس وزراء في مصر بعد الاحتلال ، (وقد اختار اللورد كرومر سعداً وزيراً للمعارف ، فحاول بمجرد تعيينه إحباط مشروع الجامعة المصرية ، وتصدى للجمعية العمومية حينما طالبت الحكومة في مارس ١٩٠٧ بجعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية ، وكان وقتئذ بالإنكليزية ، وكان الاحتلال هو الذي أحل اللغة الإنكليزية محل العربية في التدريس)[١٤٧] .

(وبعد تعيينه وزيراً أراد مجموعة من النساء المصريات في القاهرة أن يجتمعن به لأمر من الأمور ، فدخل عليهن ، وبهت ، إذ فوجىء بأنهن يسدلن الحجاب على وجوههن ، فرفض الدخول والاجتماع بهن إلا أن يكشفن وجوههن ، فأبين ذلك ، ولم يحصل الاجتماع)[١٤٨] .

---

(١٤٦) بل إن مما يحتاج إلى الفحص والتدقيق ما جاء في كتاب (الأخوات المسلمات) نقلاً عن مجلة (المصور) في عددها الخاص الصادر في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٧ بعد وفاة سعد زغلول ، فقد نشرت المصور صورة الجنازة تحت عنوان : (الأمة والحكومة تشيعان الفقيد العظيم) وتحت الصورة مباشرة كتبت العبارة التالية : (وفد البنائين الأحرار ـــ الماسون ـــ في تشييع جنازة الزعيم الكبير ، وكان رحمه الله قطباً من أقطاب الماسونية) ومن قبل ذلك نشرت جريدة (المقطم) في عددها الصادر يوم الجمعة « ٢٦ أغسطس » في الصفحة الأولى العبارة التالية : (حداد الماسونية على فقيد البلاد الأعظم .. فقدت الماسونية المصرية ، بفقد سعد العظيم الخالد عضداً كبيراً ، وفضلاً كثيراً ، وذخراً وفيراً ، كانت تعتز بفضله .. وستقام حفلة جناز ماسونية للفقيد الأعظم يعلن موعدها فيما بعد)اهـ .

(١٤٧) (مصطفى كامل) للرافعي ص (٢٣٩ ، ٤٣١) وانظر مواقفه (الوطنية) ! المماثلة في (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) للدكتور « محمد محمد حسين » (٣٧٣/٢ ـــ ٣٩٣) .

(١٤٨) من مقالة بقلم « فاطمة عصمت زكريا » ملحقة بكتاب (المرأة ومكانتها في الإسلام) لأحمد الحصين ص (٢٠٨) .

ومن هنا فلا تعجب إذا رأيت (مصطفى كامل) يعلق على تصرفات الوزير « سعد زغلول » قائلاً : (إن الناس قد فهموا الآن أوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار اللورد كرومر[١٤٩] لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزراء « مصطفى فهمي باشا » الأمين على وحيه الخادم لسياسته ... ألا إن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاضٍ ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلون ماضيه كل التفضيل، ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف)[١٥٠]اهـ، ولنختم هذا الفصل بما كتبه « سعد زغلول » عن اللورد « كرومر »، قال : (كان يجلس معي الساعة والساعتين، ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية)، (وكان يصفه بأن صفاته ــ أي كرومر ــ قد اتفق الكل على كمالها).

ويحكي « سعد » في مذكراته وقع خبر استعفاء « كرومر » من منصبه في (١٩٠٧/٤/١١) عليه، فيقول : (أما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه، أو كمن وُخِزَ بآلة حادة، فلم يشعر بألمها لشدة هولها .. لقد امتلأت رأسي أوهاماً، وقلبي خفقاناً، وصدري ضيقاً).

وكان سعد في مقدمة الداعين إلى إقامة حفل لتوديع اللورد كرومر الذي سب في

---

(١٤٩) ذكر كرومر في تقرير سنة ١٩٠٦م (أن في مصر جماعة صغيرة العدد، آخذة في الازدياد، هي الحزب الذي يمكن أن أسميه على سبيل الاختصار بأتباع المفتي الأخير « محمد عبده »)، وذكر في خصائصهم أنهم (غير متأثرين بدعوة الجامعة الإسلامية، ويتضمن برنامجهم ــ إن كنت قد فهمته حق الفهم ــ التعاون مع الأوروبيين، لا معارضتهم في إدخال الحضارة الغربية إلى بلادهم)، ثم أشار كرومر إلى أنه (تشجيعاً لهذا الحزب ــ وعلى سبيل التجربة ــ قد اختار أحد رجاله، وهو « سعد زغلول » وزيراً للمعارف) اهـ، وانظر : « الإسلام والحضارة الغربية » للدكتور « محمد محمد حسين » ص (٧٥).

(١٥٠) (مصطفى كامل) للرافعي ص (٤٢٢).

خطاب وداعه المصريين جميعاً ولم يمدح إلا رجلاً واحداً هو « سعد زغلول » وأعلن أنه يترك مصر مستريحاً لأنه أقام فعلاً القاعدة الأساسية لاستدامة الاحتلال، وصدق، فقد ألف في ذلك العام « حزب الأمة »(١٥١)، وأصبح « لطفي السيد » حامل لواء « الجريدة »(١٥٢)، وعين « سعد زغلول » ناظراً للمعارف، وقال كرومر في تعليل هذا التعيين : (إنه يرجع أساساً إلى الرغبة في ضم رجل قادر ومصري مستنير من تلك الطائفة الخاصة من المجتمع المعنية بالإصلاح في مصر)، (كما أن سعداً من تلاميذ محمد عبده وأتباعه الذين أطلق عليهم « جيروندبى »(١٥٣) الحركة الوطنية المصرية، والذي كان برنامجهم تشجيع التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر، الأمر الذي جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية)(١٥٤)اهـ .

---

(١٥١) تكون « حزب الأمة » ـــ كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا ـــ « من أركان أصدقاء الشيخ محمد عبده، من كبار رجال الحكومة، ووجهاء القطر »اهـ من (تاريخ الإمام) (٥٩١/١) ـــ مطبعة المنار سنة ١٩٣٥م.

قال الدكتور السيد أحمد فرج : (إن حزب الأمة أنهى علاقاته بالجذور القديمة الإسلامية، وصفى آثارها تماماً ليهيىء الجو للفكر العلماني الذي أطبق على البلاد بلا شريك ـــ لأول مرة ـــ وفرض أسلوب الغرب في الحكم والتربية، والتشريع والاقتصاد، يوضح ذلك بيان الحزب نفسه الذي صدر ليحذر بجلاء « الذين يتهمون هذه الحركة الجديدة، حركة حزب الأمة، بأن لها مظهراً من مظاهر التعصب الدينى أى الـ « Pan Islamism » لأنهم يريدون بهذه التهمة أن يبعدوا بيننا وبين أحرار الأوروبيين ، خاصة وأنهم يعلمون أن المصريين أبعد الناس عن هذه التهمة ، وأبرؤهم منها » اهـ « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص (١٧) . وانظر : (قصة حياتي) أحمد لطفي السيد ص (٤٤) .

(١٥٢) (اتضح أن أهم أسباب إصدار « الجريدة » إظهار نوايا حزب الأمة في تطليق فكرة الإسلامية نهائياً، والعمل على تغيير الأفكار والعادات الاجتماعية في مصر) اهـ من « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص (١٧).

(١٥٣) انظر : « الموسوعة العربية الميسرة » ص (٦٧٧).

(١٥٤) انظر (رجال اختلف فيهم الرأى) لأنور الجندي ص (١٦ ـــ ١٨).